الباب الثالث

التمهيد

في الأبواب الأولى من هذا الكتاب بحثنا بعض المواضيع التاريخية في المنطقة وعلاقة بني إسرائيل بها، وبما أن البحث ككل في هذا الكتاب يدور حول الوجود اليهودي في تاريخ الشرق الأدنى عامة وفي الحضارتين المصرية والبابلية بصفة خاصة؛ فقد رأيت أن استعرض جانبًا من تاريخ هاتين الحضارتين العريقتين، المصرية والبابلية، كل على حدة لما لهما من آثار سلبية أحيانًا وأحيانًا أخرى إيجابية، وعلى اعتبار أن جميع حضارات المنطقة مستمدة من بعضها البعض الآخر، بوجود قواسم مشتركة بينها في النواحي الفكرية والإنسانية والتاريخية والجغرافية.

▪ الفصل الأول

الحضارة البابلية

- تعريف جغرافي:

الأرض الواقعة بين نهر دجلة ونهر الفرات فيما عُرف سابقًا بـ "ميسبوتاميا" واليوم يعرف بالعراق أو بلاد الرافدين أو بلاد ما بين النهرين، تتكون تلك الأرض من سهول واسعة تمتد من جبال كردستان شمالاً إلى خليج بحر العرب جنوبًا، وهي مناطق تصل مساحاتها إلى مئات الآلاف من الأميال المربعة، والتكوين الجيولوجي للجزء الشمالي من هذه المنطقة يختلف تمامًا عن تكوين الأجزاء الجنوبية منها، فالجزء الشمالي يختلف ارتفاعًا عن الجنوبي الذي يُشبه إلى حد كبير الصحراء السورية، التي تقع غربي منابع نهر الفرات وتعرف بمنابع "البليخ".

الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين يتكون من الطمي الذي يتجمع من نهري الفرات ودجلة وفروعهما على مدار القرون التي لا تحصى، فبعد أمطار الربيع الغزيرة؛ تنمو هناك كميات من الحياة النباتية التي توفر مراعي خصبة للأغنام والجمال، وبما أنه لم تكن هناك أية وسائل ريّ منهجية، كان دائمًا من غير الممكن نمو محاصيل

زراعية في أي جزء من هذه الأرض الصحراوية، ومن ناحية ثانية كون التربة في الجزء الجنوبي أو الجزء المنخفض من السهول المكونة من الطمي المخصب ترويه مياه دجلة والفرات والقنوات المتفرعة من تلك الأنهر مكَّن سكانها منذ الزمن السحيق من إنتاج محاصيل الحبوب هناك، كما مكنهم من زراعة السهول بنجاح فائق، زرعوا أيضًا أنواع أخرى من الأشجار المثمرة، السهل الواسع بين دجلة والفرات الممتد في الجنوب الشرقي والذي يحلو لبعض الكُتَّاب أن يطلقوا على الجزء الشمالي منه اسم "ميسبوتاميا"، والجنوبي "بابلونيا"، أين ينتهي الجزء الشمالي في الجنوب أو الجزء الجنوبي أين يبدأ في الشمال غير معروف، والسهل الممتد بين دجلة والفرات يشبه إلى حد كبير السهول حول نهر النيل في مصر والجزء الجنوبي من الدلتا المصرية، ويعتقد أن السهل يتكون نتيجة تجمع كميات كبيرة من الطمي من نهرين كبيرين، والسهل المصري تكون من كميات الطمي التي حملها نهر النيل، حيث أن الحياة في مصر كانت تعتمد دائمًا وأبدًا على النيل ذاته، لهذا فإن الشعوب التي أقامت بنجاح في بابلونيا مدينة بوجودها إلى التطور الكامل للنهرين الكبيرين خصوصا نهر الفرات كما كان الحال في مصر أيضًا.

سكان بابلونيا الأوائل عرفوا بالسومريين، وكانوا يسمون نهر الفرات بـ "يورانون"، كما كان قدماء المصريين يسمون نهر النيل (يـاوُر) أما البابليون والآشوريون فكانوا يسمونه "بوراتو"،

والفرات يتكون من ملتقى نهرين في ديادين، وهما كما كان السكان يسمونهما في ذلك الوقت "كاراسو ومرادسو"، اللذان صعدا صعيده إلى علو يزيد على ١١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، الأول كان حوالي ٢٧٥ ميلاً طولاً والثاني ٤١٥ ميلاً، وطول نهر الفرات من منبعه إلى مصبه يبلغ ١٨٠٠ ميل وينحدر مجراه قدمًا واحدًا كل ميل، على طول مسافة قدرها ١٢٠٠ ميل، يبدأ منسوب المياه فيه بالارتفاع في نهاية شهر مارس/ آذار وفيضانه في نهاية شهر مايو/ أيار، يلتقي مع نهر دجلة وجداوله المتفرعة في بلدة "القرنة" العراقية الحالية قرب مدينة البصرة في المنطقة التي تعرف بـ "شط العرب" ويصب في خليج بحر العرب الذي يبعد عن القرنة حوالي ٨٠ ميلاً إلى الشرق، في الزمن القديم كان رأس الخليج يمتد حوالي ١٣٠ ميلاً في الأرض، وهذا ما أثبتته الآثار التي وجدت في مدينة "ايريدو" التي كانت على ساحل البحر.

دجلة قرب بحيرة "غيولجيك"، في مكان يبعد عدة أميال فقط عن "مرادسو" يرتفع عن سطح البحر حوالي ٥٠٠٠ قدم وقد تشكل من التقاء نهرين صغيرين في "تيل" ومن هناك إلى "القرنة" حيث يلتقي مع نهر الفرات كما سلف ذكره، وطوله حوالي ١١٥٠ ميلاً، وفي العصور القديمة كانت له روافد على ضفته الغربية تعرف بـ "ثارثار وأسيس أمير"، أما على ضفته الشرقية فهي زيبح الكبير وزيبح الصغير وديالا، وكان السومريون يسمونه "انديغا" مضيفين

بعض الأحيان إليه "إد دنغال –لا" أي النهر العريض باللغة السومرية واسمه عند البابليين والآشوريين كان "إدي-بك-لاب".

يبدأ نهر الفرات بالارتفاع في نهاية شهر سبتمبر/ أيلول، وفيضانه الكبير يحدث في شهر مايو/ أيار، ويرتفع منسوب المياه فيه بسرعة كبيرة عندما تذوب الثلوج التي تسقط على التلال وفي أماكن أخرى خصوصًا على ضفته الغربية، ومياهه تغمر عدة أميال من البلاد، والعواصم الآشورية "نينوى وكالا"؛ كانتا قد أقيمتا على ضفته الشرقية، و"كالعادة شاركت" مدينة آشورية على ضفته الغربية، ويبدو أن نهر دجلة يخترق عدة بلدان ومن المحتمل أنه كان في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، قد غير مجراه إلى القنال في المقابل لمدينتي "الكوت والعمارة" الحاليتين، هذا القنال يبدو أنه بدأ نتيجة لاندفاع الماء من قناة "نهروان" التي تدفقت من دجلة قرب تكريت وروت كل الأراضي على ضفته الشرقية وعلى مسافة طولها ٢٠٠ ميل، ودجلة دخل إلى ذلك القنال المعروف اليوم بـ "شط الحية" أو نهر الأفعى ويجري عبر البلاد ويمر في المحافظة العراقية المشهورة "واسط"، وأخيرًا يصب في المستنقع الكبير الذي تأتيه المياه أيضًا من نهر الفرات، والمستنقع الكبير يبلغ طوله حوالي ٢٠٠ ميل وعرضه ٥٠ ميلاً ويصل جنوبًا إلى مدينة البصرة، عندما امتلأ شط الحية لسبب أو لآخر بالطمي، ربما لإهمال القناة وعدم الاهتمام بها، عاد دجلة إلى مجراه الأساسي، حوالي القرن الخامس عشر الميلادي.

▪ الفصل الثاني

ملوك ميسبوتاميا وحروبهم

في الفترة الزمنية الصعبة التحديد صارت "لاغاش" مدينة قوية إبان فترة حكم "اورنينا" حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد، ربما كان ذلك بسبب التصدع الذي أصاب سلطة ورثة "ميساليم" الذي آل حكمه إلى ملوك حكومات مدن أخرى "اورنينا، غوندودو"، والذي لم يكن بمولده من أصل ملكي، وكان عمله الرئيسي ينحصر في إعادة بناء أسوار مدينة "لاغاش"، كان تقيًا ورعًا متعبدًا لآلهة مدينته ولم يكن قد أصلح أو استبدل نظام القنوات التي عادت بالفوائد الكبيرة على شعبه، خلف اورنينا في الحكم ابنه "إكورغال" الذي جاء بعده أيضًا "إرناندو" الذي كان يعتبر أعظم ملك في عائلة "لاغاش" الملكية، وفور مباشرة حكمه كان الملك "أوما" لا يلتفت إلى الاتفاقية القديمة، فقام بنهب منطقة تخص الإله "تنينوغيرسو"، الأمر الذي دعا الملك "إيماندو" ليجمع جيشه ويلتحم في معركة مع المعتدي، الذي تراجع وجيشه إلى مدينتهم ومعهم منهوباتهم، وأعطى الإله العظيم "نيبور" رجال "لاغاش" النصر ومكنهم من تدمير أعدائهم، في تلك المعارك خاض الملك بنفسه المعارك، تمامًا مثل الفرعون

"رعمسيس الثاني" في مصر، الذي حمل على أعدائه وقتل منهم ٣٦٠٠ محارب.

"الملك اوما" الذي كان يسمى "أوش" هرب ثم قُتل، وعقد "إيناندو" اتفاق سلام مع خليفه "اوما" (بنكالي)، ورسّم حدودًا جديدة لمملكته وكرس المزارات إلى "إنيليل" وإلى "نينخارساغ" و"نيغيرسو" و"بابار" ولكي يخلد انتصاراته أقام في مكان بارز من مدينته كشاهد يعرف اليوم "بشاخص النسور"، وفي إحياء الذكرى كانت هناك النحوت للآلهة للمشاهد الأسطورية التي تصور الأحداث الرئيسية لحروبه. جزء من هذا الشاخص لا زال محفوظًا في المتحف البريطاني، وعلم أيضًا أنه حصل على المياه لمدينته بإغراق الآبار، هزم قوات الملك "كيش" وسار عبر مدينته وأصبح ملك سومر وأكاد، وكان أكبر ملك في العائلة الملكية، وفي ظل حكمه حصلت "لاغاش" على ازدهارها وقوتها الكبيرة.

جاء إلى الحكم من بعده أخوه "إينانادو الأول" الذي رأى منذ البداية أن يشهر السلاح ضد الملك "اورلوما"، الذي حطم الشواخص التي كانت اتفاقية السلام نُقشت عليها، وحرق قطعًا منها ودمر المزارات الخاصة بالآلهة الحارسة، ثم غزا أراضي "لاغاش". سرق الشعب ونهب محاصيلهم وممتلكاتهم، والمقاومة التي قادها "إنانادو" لم تكن مؤثرة ولم يتمكن المقاومون من كسر قوة الملك "اورلوما"، وهنا

بدأت قوة لاغاش بالتراجع في ظل حكم "إنانادو"، وخلفه في الحكم ابنه الأكبر "إنتمينا" الذي وجد نفسه في حالة حرب مع "أورلوما"، وتقابل مع أورلوما وجنوده وحلفائه على حدود "الاغاش"، وحمل عليهم ففروا من ساحة المعركة مخلفين وراءهم ستين قتيلاً في أرض المعركة. لاحق انتيمنا الفارين وغزا أراضي "اوما" ودخل المدينة واحتلها دون مقاومة، وذبح اورلاما وضم اوما إلى مملكته، وعين الكاهن "إللبي" ملكًا عليها وأمره أن يدير المنطقة المكتسبة وأن يجمع ويرسل إلى "لاغاش" الجزية من الحبوب التي احتاجها من سكان "اوما"، وأمر بنقش مآثره على شاخص يوضع في مكان بارز في المنطقة وأن ينقش على مجموعات من قطع الخزف التي دفنت في أساسات المباني، واستعاد بذلك عظمة "لاغاش" وقوتها خلال حكمه الذي دام ٢٩ عامًا ووهب جزية "اوما" لشعبه.

من بعده تولى حكم "لاغاش" ابنه "إنانادو الثاني" الذي لا يعرف الكثير عنه، أما الملك الذي جاء بعد "إنانادو الثاني" كان "اوركاغينا" الذي حكم عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد، ولكن بين حكم "إنانادو الثاني" و"اروكاغينا" كانت مدينة شيربورا تحكم من قِبل إنيتارزي ولوغال، ولكن حكم هؤلاء كان قصيرًا وجميعهم كانوا من الكهان في المعابد وكانوا متعصبين دينيًا. عندما حصل "اوروكاغينا" على السلطة العليا نصَّب نفسه ملكًا، ولكن بعد بضع سنوات رفض هذا اللقب وأعلن نفسه ملكًا على "شيربورا" فقط، كما رفض

الأجداد السابقين ووجه صلواته إلى الإله "تينشاخ" بدلاً من "تينغريسو"، من كتاباته يستدل على الانتهاكات الخطيرة التي أصابت الخدمات الإدارية للمدينة، الحيوانات المقدسة والملكية استعملت لأغراض علمانية، الرشوة والقمع والقسوة مورست بشكل وافر وتفشت في كل مكان. عمل "اوروكاغينا" على تجنب كل تلك الانتهاكات واستعاد ممتلكات الآلهة لاستعمالها بالطرق الصحيحة، واهتم كثيرًا برفع المظالم عن شعبه وتجنب امتيازات الكهّان، فقلل أعداد الرسميين في جميع الدرجات وجعل حياة طبقة الفلاحين أكثر أمنًا وراحة، وألغى كل ما هو خطأ، مستوحيًا الإله "تينغريسو" ليعينه في إنجاح أعماله، ورسم مجموعة من القوانين التي سبقته، القوانين الشبيهة جدًا بقوانين حمورابي التي سبقته بحوالي ستمائة عام، بنى وأصلح عدة معابد وأقام أضرحة وحسن نظام القنوات الخاصة بالمدينة، وبنى خزانًا ضخمًا للماء، أصلح سور المدينة وعمل الكثير لتحسين وضع لاغاش، وفي حماسه من أجل استفادة الفلاحين أو العمال في الأرض قام بتقليص سلطات الرسميين الكبار واحتفظ بجيش لحماية مدينته ضد الهجمات التي ربما تقوم بها دول المدن المجاورة، ضعف لاغاش كان قد ابتدأ قبل أن ينصب اوروكاغينا نفسه ملكًا عليها وما كان متوقعًا قد حصل، ملك "لوغال زاجيسي" كان يراقب الأحداث والتطورات التي تجري في "لاغاش" وعندما سنحت له الفرصة قام بغزو المنطقة وخرب

المدينة ودمرها، وهكذا انتهت لاغاش كحكومة مدينة، وعزا "لوغال زيجيسي" انتصاره هذا إلى "إنليل" الإله الكبير لنيبور، وكرس الإله الذي يعبده للمعبد، وكان يقول إنه ملك إيريش وملك الأرض، وكل البلاد هي ملكه من مكان شروق الشمس إلى مكان غروبها، ومن البحر المنخفض والفرات ودجلة إلى البحر المرتفع، بهذا التصريح الأخير فكر البعض أن حكمه امتد من الخليج الفارسي جنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط غربًا، وتلك كانت مملكته تشمل "أكاد وميسوبوتاميا الشمالية"، وفيما إذا كان الأمر كذلك أم لا لأن من الواضح أن "لوغال- زاجيسي" كان حاكمًا قويًا وأنه كان ملك الجزء الأكبر من "بابلونيا"، وليس معروفًا كم عدد السنين التي حكم فيها، إلا أن البعض يفكرون أنها زادت عن ٢٤ سنة.

خلال حكم "لوغال – زاجيسي" وتطور قوة السومريين نمت قوة الساميين في أكاد، ومدينتهم كيش احتلت أهمية كبيرة، أكبر الملوك الذين حكموها كان المحارب الشديد "شارو- كين"، المعروف باسم "سرجون" الذي حكم فيها لمدة ٥٥ عامًا، فكانت فترة حكمه من (٢٦٣٧ – ٢٥٨٢) قبل الميلاد، وكان هناك جدل كثير يدور حول حكمه، حيث أنه ذكر في اسطوانة "تابونيدوس" في المتحف البريطاني أن "مرام – سن" أحد خلفاء "سرجون" قد حكم حوالي العام ٣٧٥٠ قبل الميلاد.

"سرجون" هزم "لوغال – زاجيسي" وجعل نفسه السيد الأعلى لكل دول المدن السومرية، ونصَّب نفسه على "أجيد" الموقع الذي لم يكن معروفًا من قبل، وسار بجيشه إلى ميسوبوتاميا العليا وهزم الممالك التي كانت في غرب نهر الفرات وشرق دجلة، ويقال إنه وصل البحر الأبيض المتوسط واحتل جزيرة قبرص، وحسب الأسطورة التي كانت شائعة في آشور كان هو نفسه ابن أحد الفلاحين.

أسطورة مولد سرجون أغيد:

(من صفائح المعهد البريطاني المرقمة ١٠٤٦٤ و ١٠٣٤)

أنا سرجون الملك القدير ملك أغيد كانت أمي من الطبقات المتواضعة وأنا لا أعرف والدي، شقيق والدي (عمّي) كان من سكان الجبال (رجل غابات)، مدينتي هي: أزوبيريني التي تقع على ضفة نهر الفرات، "آكي" الرجل الذي يروي الحقول جعلني بستانيًا له وعندما كنت بستاني وقعت الآلهة "عشتار" بحبي، وحكمت المملكة لأربع سنين. الأم المتواضعة حملت بي وأنجبتني سرًّا، وضعتني في سلّة مصنوعة من البوص ودهنت بابها بالقار، ووضعتني في النهر الذي لم أغرق فيه، حملني النهر إلى "آكي" الرجل الذي يروي الحقول بالماء "آكي" الرجل الذي يروي الحقول التقطني واتخذني ولدًا له.

- سرجون الثاني -

عالم الآثار البريطاني "رولنسون" وضع نسخة من هذه الأسطورة على لوحة في المتحف البريطاني في ٧ سبتمبر/ أيلول عام ١٨٦٧ وقام جورج سميت بتحرير نص اللوحة هذه في كتابه "ترجمة مجتمع اركيولوجيا التوراة" وعزا العالمان هذه الأسطورة لسرجون الذي كان بطلاً قوميًا ومحبوبًا على مدار ألفي عام.

سرجون أجاد خلفه ابنه ريموش ٢٥٨١ قبل الميلاد الذي سمى نفسه "ملك كيش"، ويبدو أنه لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى المنطقة التي اكتسبها والده، قتل من أحد حراس القصر، إبان حكمه وحكم أخيه "مانيشتوسو" ٢٥٧٢ قبل الميلاد الذي جاء بعده، تمرد العيلاميون عليه وساعدهم شعب "باراخوسو"، النصب التذكاري "اوبليسك مانيشتوسو" الذي وجد في "كتابات شوش أو شوشان أو سوسا الطويلة" كان تسجيلاً لشراء الملك أراضي معينة، إخماد التمرد في عيلام كان مسألة صعبة للملك الذي أجبر على محاربة اتحاد من ٣٢ شخصًا كانوا يعيشون قرب الخليج الفارسي، ويبدو أنه وضع شاهدًا لتسجيل انتصاره عليهم في مدينته "أجادي" أو "أكد"، تماثيل الملك وجدت في "شوش" وعلى إحدى الكتابات ذكر أنها أحضرت من "أكاد" من قبل "شتروك ناخوني" واحدة منها تقول إن الملك نفسه أحضرها من "اشنوتكو"، الاثنتان تمثلان بطولات الحرب.

خلفه في الحكم ابنه "نارام – سن" الذي حكم بين ٢٥٥٧ – ٢٥٢٠ قبل الميلاد كما ذكر في صيغ الفال في الفترة المتأخرة أنه كان محاربًا عظيمًا وفاتحًا كبيرًا، وقد وصف نفسه بأنه "ملك الزوايا الأربع للعالم" احتل مدينة إبيراك وهزم ملك "ريشو – اداد"، وفتح أرض ماجان غرب بابلونيا، وتقول الكتابات التي وجدت على نصبه التذكاري أنه خاض تسعة حروب في سنة واحدة في البلاد إلى

الشمال الشرقي لعيلام، وهزم اتحادًا من الشعوب التي عارضت تقدمه، وأقام شواهد في أكاد ليحيي ذكرى انتصاراته وأقام منحوتات تصوِّر قوته في المعارك، وجدت هذه الشواهد في "شوش" وبالإضافة إلى كتابات "مارام – سن" التي تقول أيضًا إنه كان أحضر بدون شك بطولات الحرب إلى شوش من قبل شاتروك نخاخوتني ملك ملوك العيلاميين.

مرام سن أعاد بناء معبد "عنليل" في نيبور ومعبد إله الشمس في "سيبار" وقدم هدايا للمعابد الخاصة وعدَّه آلهة من آلهة "لاغاش"، كما وجد في بير حسين بقرب ديار بكر شواهد معتبرة لنارام – سن تذكر بأن الملك هزم أعداءه في زوايا العالم الأربع وتمثالاً وأهداه إلى الإله "انكي" أو "إيا" هذا التمثال يظهر أن حكم نارام – سن امتد إلى المنطقة في أعالي مياه نهر دجلة وتأكيد على إنجازاته العسكرية العظيمة ورثة نارام – سن كانوا "شار – غالي – شاري" (٢٥١٩ – ٢٤٩٦ ق.م) أجيجي ٢٤٩٢ ق.م نانوم عيلولو وابنه شودرول ٢٤٧١ ق. م، فبينما كان نارام – سن يضيف بلدًا وراء بلد إلى مملكته كانت قوة "أكاد" تتراجع وبعد وفاته مباشرة بدأ الجوثنانيون الذين يعيشون على ضفة دجلة الشرقية غزوهم وما كان "شار-غالي- شاري" قادرًا على صدهم فخسر المنطقة تلو الأخرى حوالي عام ٢٤٥٧ ق.م، وهكذا انتهت العائلة الملكية لسرجون بعد ١٨١ عام، الجوثيون بالنهاية فتحوا أكاد وحكمت

عائلتهم الملكية البلاد لمدة ١٢٥ سنة، أسماء حوالي عشرين منهم عرفت وطرد السومريون الحوثيين من البلاد بقيادة الملك "إيريش" اورو – خيغال وكان أخر ملوكهم تريجان، من عائلتهم الملكية خمسة ملوك حكموا لمدة لا يعرف طولها بالضبط، ولم تكن هناك سلطة مركزية في بابلونيا، وكل ملك أو زعيم كان يعمل ما يراه من وجهة نظره الشخصية حسنًا، ملك "لاغاش" استعاد تدريجيًا بعض الشيء من سلطانهم السابق، وخلال وقت قصير أصبحت المدينة غنية ومزدهرة وقد عرفت أسماء أربعة عشر ملكًا من ملوك "اغاش" أو القليل منهم كانوا على مقدرة كبيرة ومتعددة وكانوا مثقفين ثقافة عالية، الملوك لاغاش الجديدة المبكرين كانوا "لوغال-اشوم غالي – أوري بوزور – ماما، اوجمي واورماما" ولكن لا يعرف الكثير عنهم. الملك الثاني كان "اوربا" الذي وسع معبد "إرنونو" والمعبد الكبير "نيجيرسو" في لاغاش وأقام لنفسه نصبًا تذكاريًا صغيرًا فيها وأعاد بناء أو وسَّع معابد أخرى كثيرة وكرَّس جهوده لتوحيد قوة مدينته ولم يحاول أن يقوم بفتوحات خارجية.

الملك المهم الذي جاء من بعده كان "جوديا" في عهده وصلت المدينة أعلى درجات الازدهار، إذ كان رجل أفكار كبيرة وباذخ كما تشهد على ذلك مبانيه وتماثيله، ولم يدخر وسعًا في جعل مدينته جميلة حيث أن قدراته المعمارية كانت عظيمة، وإلا ما كان نجح بدون شك، المواد التي استعملها في البناء جلبت من عدة بلاد بعيدة، ومن

ضمن هذه المواد خشب الأرز والذهب والفضة والنحاس والرخام وأخشاب غالية الثمن ومن أصناف متعددة، قوافله تاجرت مع السوريين والعرب والعيلاميين وأحضر صنادل بحرية وانشأ الطرقات إلى مقالع الحجارة، في الحقيقة كان ملك تجارة، والتجار الذين تعامل معهم في البلاد البعيدة لم يكن لديهم الشك حول قدراته المالية، تماثيله وجدت في "تل لوح"، وهي نماذج مرموقة من القبور السومرية، وكان من صنعوها أو نحتوها يدويون على مستوى رفيع من المهارة والحرفية، سلندرات الطين المشوي الآن توجد في متحف اللوفر بفرنسا، وقد سجل عليها أعماله وهي أفضل تذكار له برغم أن ما فيها لم يذكر إلا القليل من المعلومات التاريخية، فهي تأليفات متصلة كاملة بذاتها ولها قيمة لا توصف لطلاب اللغة السومرية.

هذه الأجسام وجدت في "تل لوح" وتبين منها أن جوديا أحب المباني وكان غرضه الرئيسي في الحياة أن يجعل مدينته جميلة، فكان راعيًا للفنون والمهن الفنية اليدوية في عصره، وفي سبيل تطوير هذه الفنون المهنية أنفق ثروة كبيرة من تلك التي حصل عليها من تجارة القوافل، وعلى أي حال كان هو بالنسبة إلى "لاغاش" كالفرعون أمنحوتب الثالث بالنسبة لمصر، جاء من بعد جوديا ابنه اورنينغرسو وكانت فترة حكمه قصيرة وبموته انتهت سلطة وقوة لاغاش.

الحكام المتعاقبون لبابلونيا كانوا الملوك الخمسة في أور، والذين دام حكمهم عشر سنوات (٢٢٩٤- ٢١٨٧) قبل الميلاد، الأول من هؤلاء كان "اوراغور" أو "اورمامو" الذي حكم ١٨ سنة، قام خلالها بتحصين المدينة وهاجم مدن "تيريش ولارسا زونيبو" وأصبح سيد الدول الجنوبية في "أكاد"، بنى المعابد لآلهة المدن التي احتلها وضمن دعم كهانها، جاء من بعده ابنه "دونجي" أو "شولجي"، الذي حكم حوالي ٤٥ سنة، وخلالها مد حدود بلاده في "عيلام"، وعلى طول الضفة الغربية لنهر دجلة، وثبت حكمه على "أكاد" ولسبب أو لآخر أحيا عظمة وأهمية "إنكي" إله "يرودو القديم"، وهي مدينة تقوم على ساحل البحر لغرب رأس الخليج الفارسي، وكانت من أقدم المدن السومرية، ولم يكتفِ باحتلال "أكاد" إذ سار إلى بابل ونهب معبد "ي- زيدا" ونهب المدينة وخرب مزار الإله فيها، وطبيعي أن ينزل درجات كهانها وأن يقيم القانون والنظام في تلك البلاد غزو بلد وتجريدها وتركها والعودة إلى وطنه بعد تخريبها لم يكن جزءًا من حساباته السياسية، فقد حدث الأوزان والموازين لبابلونيا وأسس نظام تأريخ الوثائق، "دومجي" ألّه نفسه وتبع أحفاده من بعده مبادئه، كان قد ورثته ابنه يوسن أو "أمار- سن" وحفيده "عميل – سن" أو "شو – سن"، "إبي – سن" خلال فترة حكمه القصيرة التي دامت ثمان سنوات فقط، لم يقدم الكثير لبلاده ويبدو أنه كان مسالمًا أو لديه نزعة الكسل. ابنه

"غميل – سن" الذي كانت فترة حكمه قصيرة وجد الساميين من الشمال يزحفون على ممتلكاته، فكان مرغمًا على بناء سور عظيم على الجانب الغربي لمدينة أور ليمنع أو يعيق غزوهم لأراضيه، عمومًا العائلة الملكية في "أور" انتهت ليس من الزحف من الساميين الشماليين ولكن من "العيلاميين" الذين أغاروا على "أور" وأخذوا "إبي – سن" أسيرًا، ولم يكن هناك أحد في أور ليرثه، وهكذا فإن سيادة بابلونيا انتقلت من أور إلى "إيسين" التي تحولت إلى مدينة ملكية، أما موقع المدينة الصحيح فهو غير معروف، لكن من المحتمل أنه يقع قليلاً إلى الشمال من "نيبور".

كان مؤسس العائلة الملكية في "إيسين" "اشبي – ارا" الذي حكم ٣٢ سنة من (٢١٨٦ – ١٩٦١) ق.م، وأهمهم كانوا "اشمي – داجان" و"ليبيت عشتار" و"أور- إنورتا" و"بور – سن"، أما العائلة الملكية المعاصرة مع الساميين في "إيسين" كانت عائلة "لارسا" التي تكونت من ستة عشر ملكًا، حكموا ٢٨٧ سنة (٢١٨٧ – ١٩٠١) قبل الميلاد، مؤسس هذه العائلة الملكية كان "نابلاتوم"، حوالي ١٩٩٧ قبل الميلاد عندما كانت قوة ملوك "إيسين" تنخفض بسرعة، الملك العيلامي "كيدو- مابوغ" الذي جعل نفسه سيد أراضي بابلونيا الشرقية؛ نصَّب أبناءه "وأراد – سن وإرم – سن" ملوكًا على "لارسا" وحكما هناك ١٢ عامًا و٦ أعوام على التوالي.

"إرم – سن" حطم قوة ملك "إيسين" واستولى على مدينته وممتلكاته في "سيبار" وفي "بابل" أيضًا.

حوالي عام ٢٠٥٧ قبل الميلاد بدأت أول عائلة ملكية سامية تحكم في مدينة "بابل"، مؤسس هذه العائلة الملكية هو "صبواني" الذي حكم ثلاث عشرة سنة، وتكونت هذه العائلة من أحد عشر ملكًا، وجميعهم حكموا لمدة ثلاثمائة سنة تحت حكم الملوك "صموليلو – صابوم – بين – سن وسن – موباليت"، ازدهرت سلطة البابليين بشكل كبير، ولكنها كانت من خلال حكم حمورابي الذي كان الملك السادس في العائلة الملكية، والذي حكم حوالي ٤٢ سنة، حيث وصلت بابل في عهده إلى أوج نفوذها وبهائها، وكانت المدينة الأولى في بابلونيا، فقد سار بجيشه ضد "رم – سن" الذي كان قد احتل "إيسين" وأخذ لارسا وملكها أسيرًا، وهكذا انتهت قوة "لارسا" وقام بحملات على "سومر" في بابلونيا العليا وآشور وكان منتصرًا في كل مكان، ومن ضمن المدن التي خضعت له كانت نينوى وآشور فلم يكن محاربًا كبيرًا فحسب، بل كان أيضًا حاكمًا منظمًا وفكَّر أن لا شيء أهم من مصلحة مملكته مهما كان صغيرًا أو غير مهم يستحق المراقبة الشخصية، رغبته كانت أن يجعل شعبه شعبًا يحترم القانون الذي جمعه، وكان من الواضح من ذلك القانون أن لا مملكة يمكن ألا تتحمل حكم العدالة المزدوجة بالحكمة والإنسانية، فكان بدون شك أعظم ملك في بابلونيا، وربما أعظم رجل أنجبته البلاد.

كان قانونه يقوم على أساس القوانين السومرية القائمة، بعض الكُتَّاب يفكرون أن حمورابي يجب أن يقارن بـ "امرافل" ملك "شنعار" الذي مع "اريوش" من "لإيليسار" "شيدورغامير" ملك عيلام وتيدال ملك غوييم غزوا فلسطين (حسب سفر التكوين – الإصحاح الرابع عشر) الذي ربما يكون شكل مشوه لاسم حمورابي وتيدال، الذي يبدو أنه اسم "حثي"، وذكر ملك بابل مع ملك "حثي" لا يفاجئ أحد، فهناك حلقة عيلامية في صوت "شيدورلامور"، بالرغم من أن "إيليسار" ربما يمثل "لارسا" ملكها "ارنوخ"، من الصعب تعريفه ولكن يحتمل أن يكون بيان سفر التكوين في التوراة اليهودية له أسس سياسية، أما النص الذي جاء في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين فهو كما يلي:

"وحدث في أيام امرافل ملك شنعار واربوك ملك لاسار وكدرلعومر ملك عيلام وتدغال ملك جوييم أن هؤلاء صنعوا حربًا مع "بارع" ملك سدوم وبرشاع ملك عمورة وشناب ملك أدمه وشمئبر ملك صبوئيم وملك بالع التي هي صوغر، جميع هؤلاء اجتمعوا متعاهدين إلى عمق السديم الذي هو بحر الملح، اثنتي عشرة سنة استعبدوا كدرلعومر والسنة الثالثة عشرة عصوا عليه، وفي السنة الرابعة عشرة أتى كدرلعومر والملوك الذين معه وضربوا الرفائيين في عشتاروت قرنايم، والزوزيين في هام، والأميين في شوي قرنايم،

والحوريين في جبلهم سعير، إلى بطمة فاران التي عند التربة، ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التي هي في قادش، وضربوا كل بلاد العمالقة، وأيضًا الاموريين الساكنيين في حصون تامار".

وباعتبار أن حمورابي وامرافل ملك شنعار التي تتحدث عنهما التوراة في سفر التكوين كان عصرهما في بداية الألفية الثانية قبل الميلاد ولم يكن موسى صاحب سفر التكوين قد جاء إلى الحياة بعد، حيث أن عصره هو القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أي في الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، أي أن بين موسى وامرافل وحمورابي لا يقل عن ٦٠٠ سنة، كما أن التوراة كتبت في بابل العراق بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالي سبعمائة سنة، وبهذا يكون الفارق الزمني بين سفر التكوين وحمورابي وامرافل ما لا يقل عن ١٣٠٠ عام. فكيف يكون موسى قد كتب ذلك النص قبل ولادته؟ وهذا ما يؤكد أن مدونوا التوراة قد وضعوا هذا النص في البنتاتويخ من بنات أفكارهم وعلى أسس سياسية محضة، كما لا توجد هناك في تاريخ ميسبوتاما أي إشارة إلى قيام حمورابي بغزو فلسطين ولم يحتل أي مكان في أرض كنعان كما جاء في التوراة، وسوف نعود لهذا الجزء من البحث لاحقًا في هذا الكتاب حين نعرض إلى فصل يتعلق بادعاءات اليهود والمبالغات فيها.

- حمورابي -

رسائل حمورابي ومنقوشاته تؤكد أنه كرَّس الكثير من اهتماماته لشؤون مملكته وأن القرارات التي اتخذها تظهر بأنه عامل الشعب بالعدل وباحترام لما هو يعتقد به أن يكون رعاية مصالحهم، إذ كان يصر على تحويل المسائل الصعبة إليه شخصيًا ليتخذ بشأنها القرارات المناسبة ولم يترك أي تفصيل إداري مهما كان صغيرًا أو غير مهم إلا ويهتم به، وقد أدى ذلك كما يتبين من رسائله التي حررت بإعجاب من قبل (L.W. King) في مجلداته الثلاثة "رسائل ونقوشات حمورابي" والتي صدرت في لندن بين (١٨٩٨ – ١٩٠٠ ميلادي).

المثال التالي من أعماله أن أحد صفائحه الموجودة في المتحف البريطاني تحت رقم ١٢٨١٢ تفيد أن الملك "سن –انديناما" قد أبعد من وظيفته "جميلوم" ونقل خدماته إلى دائرة أخرى، وكتب حمورابي إلى "سن – ادرينتام" يخبره أنه تسلم تقريرًا من "ايني مارتو" النقاش للوحات "ايمتبالوم" بخصوص الخبازين الأربعة، (الذين يشوون الطين لتحويله إلى خزف)، ورَدَّ "ايسن ايدنام" أن الخبازين الأربعة كانوا عينوا لديه بموجب سلطة الختم (وثيقة تحمل ختمًا) وأنه كان يرسل واحدًا من الشوايين وهو جيميلوم ليمثل أمام الملك حمورابي، وفي الوقت الذي وصل فيه جيميلوم وعلى وشك أن يكون في حضرة الملك، ذكر بقضيته حمورابي، الذي استمع إلى ما قاله جيميلوم واستفسر عن صحة أقواله، فقرر إعادته إلى وظيفته التي كان يشغلها بين الشوايين، وعليه أمر بالكتابة إلى "سن – يديناما" يخبره أن جيميلوم يجب أن يعود إلى عمله، وأن يرسل شخصًا آخر مكانه في الدائرة.

■ الفصل الثالث

مدينة بابل

اسم مؤسس بابل وتاريخ تأسيسها غير معروفين، موقعها جعلها منذ أقدم العصور السوق المركزية للقوافل التجارية من الغرب والشمال والشرق، والقوافل من الجنوب أيضًا وكانت في جميع فترات مراحلها المحطة النهائية للقوافل، بعض الأشياء التي اكتشفت في أعمق طبقات الأثار هناك تشير إلى أنه كانت هناك مستوطنة تقوم في فترة العصر الحجري الحديث، وبابل تدين بكل شيء لموقعها الجغرافي وهذا الذي جعل المدينة تصمد أمام سلسلة من الهجمات المدمرة التي واجهتها خلال الأربع أو الخمس آلاف سنة من وجودها، قيمتها الحقيقية اعترف بها رجال القانون العظماء والحكماء، حمورابي الذي وسَّعها وقواها واتخذها عاصمة له، يخبرنا في مخطوطاته الأولية من القوانين أنه عمل من أجل معبد "ايليل" في نيبور، وكيف استعاد مدينة "ايريدو"، وهي ربما تكون أقدم مدينة في بابليون، ويواصل قوله إنه ضخم اسم بابل وأسعد قلب الإله "ماردوك" وماذا فعل لأعظم معبد في بابيلون معبد "ايساغيلا".

السومريون سموا المدينة "أكاد دنغيرا" بمعنى بوابة الإله، وأيضًا تنتيرا بمعنى "أيكة الحياة"، الآكاديون البابليون الساميون ترجموا الاسم السومري "أكاد دينغيرا" بـ "بابيلو"، وهو أيضًا يعني بوابة الإله، حاخام يهودي يذكّر بتبلبل الألسن فيها الذي حدث عندما توقف البناء في برج بابل، الجغرافيون العرب عرفوا تمامًا أين كان موقع مدينة بابل، ولكن من بين الجوالين الأوروبيين واحدًا من الأوائل تعرف على موقعها وكان هذا "بنيامين تودلا"، الحاخام اليهودي الذي زارها عام ١١٧٣ وجاء من بعده "بيتوس اودوريكوس" ودون إلدرد ورالف فتش وليديس وجون ستيوري ورالف في القرن السادس عشر الميلادي بيترودلا فالي، عمانوئيل القديس وكثيرون غيرهم في القرن الثامن عشر الميلادي..

وهنا لابد من السؤال لماذا كان هذا الاهتمام اليهودي بهذه المدينة؟ هل لأنها كانت خالية من اليهود الذين تم سبيهم إليها كما تقول التوراة؟ أم أن هناك أهدافًا من وراء تلك الزيارات والتنقيب عن الآثار فيها؟ هل كان لفبركة وجود لبني إسرائيل هناك، خصوصًا وقد لاحظنا أن الإصحاح الرابع عشر في سفر التكوين يخلط بين أسماء المدن في فلسطين وأسماء مدن ميسبوتاما؟ سؤال نتركه للإجابة عليه لاحقًا في هذا الكتاب!

السكان اقتادوا "بيوكامبس" إلى تحت الحفريات للمباني القديمة التي يعرفونها عندما كانوا يقومون بالحفر وأطلعوه على "الأسد البازالت" (البازالت هو نوع من الحجارة البركانية) الذي كان لا يزال رابضًا هناك، مثل "بيارو ولا فالي" أخذ بعضًا من الطابوق الآجر وشحنها إلى أوروبا، وفي عام ١٨١١ ميلادي فحص القنصل البريطاني الأول في بغداد كما حفر في بعض الأماكن الأثارية ورسم خارطة لتلك الأماكن، "لايرد" ١٨٥٠ ميلادية ورولستون في عام ١٨٥٤ ورسّام في ١٨٧٨ قاموا أيضًا بحفريات في بابل، ولكنها لم تكن حفريات منظمة، حتى جاء الدكتور "كولديوي" الذي حضر هناك في الفترة من ١٨٩٩ – ١٩١٢ وكان خلال هذه الفترة الزمنية قد أنجز حفر نصف الموقع، أكبر تل في بابل هو تل "بيبل" الذي يبلغ ارتفاعه ٢٢ مترًا، ومساحة أرضه عند القاعدة تبلغ ٢٥٠ مترًا وتحتوي على بقايا قصر أو قلعة "بابل" التي بناها نبوخذ نصر الثاني، والتي سماها "كولديوي" شارع بيبل الذي عبده الملك نبوخذ نصر، بألواح طول الواحد ثلاثة أقدام ونصف القدم، وكان فيه أيضًا جدران من طابوق لمَّاع، وتزدان بصور الأسود والحيوانات المختلفة وبالقرب من بوابة "عشتار" أسوار بارتفاع ١٢ مترًا لا زالت قائمة وعليها نقوش ثيران وحيوانات رائعة، التنين له رأس أفعى وقرون وأمشاط حلزونية، والذيل ذيل أفعى، الأرجل الأمامية أرجل حيوان والأرجل الخلفية أرجل طير، إلى الشرق من بوابة عشتار يربض معبد

"تينماخ" وبئر في الصحن الأمامي من الآثار، خارطة المعبد وضعت في بناية في القلعة الجنوبية تحتوي على البئر (حسب كولديوي) بثلاثة محاور تحيط بالماكينات لرّي الحديقة المعلقة المشهورة والتي كتب عنها الكثير، والبناية ذاتها تمثل البناء الملحق بالحديقة المعلقة بصعود إلى الشرفات المرتفعة ستة أقدام و ٣٢ مترًا عرضها و ٤٠٠ طولها، تبدو وكأنها سلالم عظيمة طائرة أو مثل طبقات من مقاعد في مسرح، زرعت بالأشجار والزهور وكانت تسقى بمسامير هيدروليكية تمتد من أعلى شرفه إلى منسوب الفرات، كل من شاهد هذه الآثار لا بد وأن يعترف بأن حديقة من هذا الحجم والنوع لم تكن موجودة في بابل، ربما كان هناك شرفة بأشجار ونباتات من نفس النوع مثل "بايت غباري" التي صنعها "انابونيدوس" لابنته في "أور" والتي ربما كانت نساء المعبد تستعملها كشرفة في أور.

في القصر توجد قاعة كبيرة طولها ٥٢ مترًا وعرضها ١٧ مترًا وجدار واحد تبلغ سماكته ٦ أمتار، رسام والحفارون الآخرون اقترحوا أن يكون هذا "بيت أفراح" أو بيت احتفالات الذي شرب فيه "بلشزار" النبيذ أمام الآلاف من ألهته، ورأى الكتابات على الجدار في الزاوية الجنوبية الغربية من القصر، ووجد "كالديوي" نعشًا كبيرًا من الخزف، ويعتقد أن الذي دفن في ذلك النعش كان والد الملك "نابوبلسر"، بين القصر والخندق المائي جدار "امجور- بيل" الاباندا أو القصر الفارسي، وجنوبًا معبد البرج الذي كان يسميه

البابليون "بيت الأساس الحجر للسماء والأرض"، ولكن المعرفة العامة له هي برج بابل، المساحة التي يقوم عليها لها بابان وعشرة بوابات مخارج تجمعها سلسلة من البيوت المخصصة للكهان والحجاج، وعدة غرف مستودعات هيرودوت يقول إن في الضاحية الوسطى كان يوجد برج من الحجارة الصلبة يرتفع عليه برجًا آخر وعلى ذلك برج ثالث وهكذا حتى يصل عدد الأبراج عليه إلى ثمانية.

مدينة بابل كانت ضمت إلى ضاحية كبيرة على الضفة الغربية لنهر الفرات (الموقع الذي يقوم على جزء منه مدينة الحلّة الحالية)، يربطهما كبري طوله ١٢٣ مترًا، أرصفته تبعد عن بعضها ٩ أمتار وطولها ٢١ مترًا وعرضها ٩ أمتار، يتصل بها شارع تحويل كان قد عبَّده نبوخذ نصر الثاني بخط مباشر مع "برج بابل"، يقوم ايسادجيلا معبد بيل ماردوك الكبير وفي الوجهة الشمالية يقوم مزار الإله "إيا" الذي كان طوله ٧٠ مترًا وفي الواجهة الغربية كان مزار "ماردوك" الذي كان طوله حوالي ٨٥ مترًا، على الجدران في المجموعات الثلاث كانت الأبراج وعلى كل جانب جدار بوابة لحماية البرج "إلي" وشرفتها توجد بقايا معبد "إينورتا" الذي يرجع تاريخه إلى عهد "نابوبلصر" وقريبًا من الشمال كانت المكاتب وبيوت خدم الحكومة، أكوام الحمرة تشير إلى موقع معبد عشتار في "إكد" والمسرح الإغريقي الذي يرجع تاريخه إلى عهد الإسكندر المقدوني الذي كان مكونًا من كتلة ضخمة من حطام آثار معبد بابل الذي دمره

"كسركس"، الإسكندر الكبير أراد أن يعيد بناؤه وأعطى أوامره بذلك وأزال الحطام ولكن العمل انتهى عندما مات الإسكندر الكبير وبقي المبنى مدمرًا.

كثيرون وصفوا الجدران العريضة في بابل ومقاساتها، ولكن لا أحد يتفق بأنه الإثبات المأخوذ من هيكلها كما يقول "هيرودوت" إن المدينة كانت مربعة بقياس ١٢٠ميلاً في كل اتجاه، على سبيل المثال إن الحلبة كانت ٤٨٠ أو ٥٤ ميلاً وهذا غير ممكن، آخرون قالوا إن الحلبة كانت ٣٦٠ أو ٣٦٥ ميلاً، وأكثر مقاساتهم تتفق مع تلك التي وضعها "كالديوي"، مرة أخرى "هيرودوت" يعطي عرض الجدران في بابل بأن يكون ٥٠ ذراعًا ملكيًا ويقول إن ذلك يعطي ملجأ على طول كل جانب، تاركًا مسافة كافية لعربات بأربع خيول تمر من بينها، وحيث أن الذراع الملكي كان يعادل نصف متر كانت الجدران بعرض ٢٥ مترًا أو ٨٣ قدمًا، والآن "كولديوي" يقول إن سور بابل الكبير يتكون من جدارين بعرض (٧ و ٧,٨ مترًا على التوالي ولكن هذه الجدران كانت تبعد عن بعضها البعض بحوالي ١٢ مترًا وأن المساحة بينهما كانت قد امتلأت بالتراب بعرض مجموعه ٢٦,٨ مترًا، المسافة بين الجدران ١٢ مترًا أو ٤٠ قدمًا وهي كافية لتمر من بينها عربات الخيول، هكذا فإن تقرير "هيرودوت" حول عرض الجدران هو تقريبًا صحيح، وخارج هذا الجدار المزدوج كان الخندق المائي، كل جانب منه كان مبطنًا بطبقة

من الطوب المشوي بسماكة ١٠ أقدام مطلي بالقار، وكانت الجدران الخارجية قد بنيت بنفس المادة، الجدار الداخلي بني بطوب غير مشوي، وقبل حكم نبوخذ نصر الثاني، مجموع الأسوار كان ١٨ كيلومترًا أو ١٠ أميال وليس ٢٥ كيلومتر كما اعتقد هيرودوت.

السومريون والبابليون يشتركون مع المصريين والشعوب الأخرى في الآثار القديمة، وباستمرار توقعوا أصل السماوات والأرض والأشياء بما فيها أنفسهم، ومن المعروف أن مفكرين مختلفين في أجزاء مختلفة من بابلونيا توصلوا إلى نتائج مختلفة في تأملاتهم، في النصوص المسمارية كما جاء في سفر التكوين في التوراة اليهودية، هناك شكلان لصفة الخلق ومقاطع مختلفة في الأساطير التي وصلتنا يتبين أن هناك إصدارات عديدة، الإصدار الأقصر والأبسط المعروف بإصدار "ثنائي اللغة" من أسطورة الخلق وجدت على ألواح في المتحف البريطاني تحت رقم ٩٣,٠١٤ تبدأ بوصف الوقت الذي لم يكن فيه وجود للآلهة، ولم تكن فيه الأشجار موجودة، ولا كانت البيوت أو المدن قد بنيت، وعندما لم يكن المخلوق قد فصّل، كان ذلك الوقت بعيدًا جدًّا لأن يكون معبد ايليل نيبور ومعبد إريش قد بنيا، وحتى "ايرودو" أقدم مدينة في الأرض لم تكن تأسست في الوقت الذي كانت فيه مقدسات "بيل مردوخ" في بابل قد اكتملت. "لوجال – دول – ازوجا" شكلاً من أشكال مردوخ، خلق آلهة "أنوناكي" التي أحبوا أن يسكنوها، العالم خلقه مردوخ،

شكَّله بعجن الأرض ونثرها على حصيرة فوق سطح الماء، مما شكَّل مكانًا ملزمًا للآلهة، الذين بدورهم استحسنوه ووافقوا عليه، بعد ذلك قام "مردوخ" بتشكيل الرجل والإله "أورو" ومعه خلق بذرة الجنس البشري، وهو الذي خلق وحوش الغابة وكل المخلوقات الصغيرة في الحقل، خلق نهري دجلة والفرات، وحدد مكانهما في الأرض وأعلن عن اسميهما، هو أيضًا خلق النباتات والحبوب التي تنتج النبات والأعشاب والنجيل والطرق الأرضية والمستنقعات وخلق البقر والعجول وخلق النعاج والحمل والخروف والحدائق، وأرض الأعشاب وخلق الماعز الذكر والماعز الجبلي المتوحش وخلق الإله مردوخ البرزخ في البحار وأغلق المستنقعات وخلق النباتات والأشجار وبنى بالطوب وانشأ البيوت وأوجد المدن وخلق سكانًا لها. خلق مدينة "تيبور" وبنى برجها "ايكور" وعمل "ايريش" بنى معبد "إينا".

من المهم أن يلاحظ الباحث أن هذا النص مثل القصة المصرية حول الخلق، كما تبين من "بابيرص" من نوسي – امو في أساطير الآلهة الموجودة في لندن منذ عام ١١١٢ميلادية صفحة (٢ ف ف) والتي كانت بعض الأحيان تستعمل للتعزيم في الشعوذة، وكان من المعتقد أن قراءتها تُعطي نتائج هامة، إصدار آخر من قصة الخلق وجد على الألواح السبعة للخليقة والتي حفظت بنسبة كبيرة منها في المتحف البريطاني، وحسب هذا لم يكن في البداية شيء موجود

سوى كتلة من المياه بمدى غير محدود يسمى "أسبو"، قدامى الكُتَّاب لم يحاولوا أن يتبينوا كيف جاء هذا إلى الوجود، من "أسبو" جاء الشياطين البشعين بأشكال مُركَّبة والآلهة بأشكال الرجال، المكان الذي تعيش فيه الآلهة تسميها السماء، والمكان الذي تحته تسميه الأرض، الإلهان القديمان اللذان جاءا من أسبو كانا "لخمو ولخامو" ولكن لا يعرف عنهما شيئًا، بعد مدة طويلة وغير محددة ظهر الإله "اتشار" ثم الإله كيتشار، وتلا ذلك السماوات والأرض كمؤسستين منفصلتين وبعدهما جاء إلى الحياة "آيو" والإله "إيا" إله البيت والماء وعدة آلهة أخرى.

وفيما يتعلق بابراهيم الخليل وجذوره البابلية وما أوردته التوراة حول قيام الملك النمرود بحرق إبراهيم، فالملك النمرود المزعوم هذا ذكر في التاريخ البابلي بشكل مقتضب جدًا، وجاء ذكره في معرض الحديث عن بقايا البرج الذي يقال إنه بناه، وأن هذا الملك كان معاصرًا لزمن "أبراهام" أي في بداية الألفية الثامنة قبل الميلاد، وكان النمرود قد بنى ذلك البرج ليصعد به إلى السماء ويرى الله، نمرود كما جاء في المكتبات التاريخية اضطهد "أبراهام" الأب الجوال ولكن الله نجى أبراهام منه ودمر البرج الذي أقامه، إذ أرسل عليه نارًا من السماء حوَّلت البرج إلى رماد، ومات نمرود بشكل تعيس للغاية حيث دخلت نملة إلى رأسه عن طريق الأذن أو الأنف جعلته يتألم كثيرًا ثم ما لبث أن مات.

هذا كل ما ذكر عن ملك اسمه نمرود وعن رحالة اسمه أبراهام، وبطبيعة الحال لم يكن اسم "أبراهام" من الأسماء المتداولة في بلاد ما بين النهرين في ذلك الحين، كما أن ذكر ملك اسمه النمرود كان يقصد به ملك بابل، والتوراة اليهودية تذكر قصة الملك النمرود أنه كان في "أور" وأن أور كانت كلدانية، علمًا بأن "أور" كانت مدينة سومرية أكيدية وليست كلدانية، ومن هنا نستنتج أن قصة النمرود مع "أبراهام" هي من ضمن الروايات الأسطورية الملفقة في التوراة اليهودية، وإذا ما تابعنا البحث وتقصي تاريخ بلاد ما بين النهرين لا نجد أي ذكر لإبراهيم الخليل عليه السلام أكثر من الفقرة التي ذكرناها آنفًا، والتي يعتقد أن المؤرخين الذين جاءوا في وقت لاحق أضافوا هذه المعلومة المقتضبة ليثبتوا علاقة إبراهيم ببابل وبالملك النمرود، وهنا لابد من التذكير بأن المؤرخين الأواخر كان معظمهم من الربانيين اليهود الذين أكثروا من رحلاتهم إلى بابل خلال القرون الأخيرة، وهذا يعيدنا إلى السؤال الذي طرحه الأركيولوجيون والمؤرخون المعاصرون وهو: من أين جاء إبراهيم الخليل ومن هو إبراهيم؟ إذ لا يعقل أن يكون إبراهيم قد تحدى ملكًا عظيمًا من ملوك بلاد الرافدين، وتأتي التوراة بقصة حرق إبراهيم بأسلوب مثير وغريب، ولا نجد في المكتشفات الأثارية البابلية وغيرها ذِكرًا لهذا الرجل العظيم؟ كيف يكون ذلك؟ والإجابة على هذا السؤال هي أن ما جاء في التوراة حول إبراهيم الخليل إنما هي قصة ملفقة لا أساس لها من الصحة، الأمر الذي يفرض على الباحث العودة إلى كتابات

العموريين لقصة إبراهيم الحقيقية، والتي كما أسلفنا كانت قبل حوالي ١٤٠٠ سنة من التوراة اليهودية.

إضافة إلى هذا أن أور لم تكن عاصمة بابلونيا في تلك الحقبة التاريخية، حيث كان العيلاميون قد أغاروا عليها وأخذوا ملكها "ابي – سن" أسيرًا، ولم يكن أحد في أور ليرث ملكها، وهكذا انتقلت سيادة بابلونيا من أور إلى إيسين التي تحولت إلى مدينة ملكية، وكان مؤسس الأسرة الملكية في إيسين الملك "اشبي – ارا" الذي حكمها ٣٢ عامًا من (٢١٨٦ – ١٩٦١)، وأهمهم كانوا "اشمي – داجان" و"ليبيت عشتار" و"أور- إنورتا" و"بور – سن"، أما العائلة الملكية المعاصرة مع الساميين في "إيسين" فقد كانت عائلة "لارسا" التي تكونت من ستة عشر ملكًا، حكموا ٢٨٧ سنة (٢١٨٧ – ١٩٠١) قبل الميلاد، مؤسس هذه العائلة الملكية كان "نابلاتوم" حوالي ١٩٩٧ قبل الميلاد عندما كانت قوة ملوك "إيسين" تنخفض بسرعة، الملك العيلامي "كيدو- مابوغ" الذي جعل نفسه سيد أراضي بابلونيا الشرقية نصَّب أبناءه "وأراد – سن ورم – سن" ملوكًا على لارسا وحكما هناك ١٢ عامًا و٦ أعوام على التوالي، "إرم – سن" حطم قوة ملك "إيسين" واستولى على مدينته وممتلكاته في "سيبار" وفي "بابل" أيضًا.

حوالي عام ٢٠٥٧ قبل الميلاد بدأت أول عائلة ملكية سامية تحكم في مدينة "بابل"، مؤسس هذه العائلة الملكية هو "صبواني" الذي

حكم ثلاث عشرة سنة، وتكونت هذه العائلة من أحد عشر ملكًا وجميعهم حكموا لمدة ثلاثمائة سنة تحت حكم الملوك "صموليلو – صابوم – بين – سن وسن – موباليت"، ازدهرت سلطة البابليين بشكل كبير، ولكنها كانت من خلال حكم حمورابي الذي كان الملك السادس في العائلة الملكية، والذي حكم حوالي ٤٢ سنة، حيث وصلت بابل في عهده إلى أوج نفوذها وبهائها، وكانت المدينة الأولى في بابلونيا..

ومن هذا يتضح أن الملك الذي كان في الفترة التي ادعى بنو إسرائيل أنها كانت فترة إبراهيم الخليل عليه السلام هو الملك "حمورابي"، وليس ما يسمى نمرود كما يتضح من تاريخ ميسبوتاميا المدون.

■ الفصل الرابع

الحضارة المصرية

- الهكسوس:

الهكسوس كانوا غزاة جاءوا من أواسط آسيا الصغرى، وتمكنوا من احتلال مصر السفلى، وحكموا فيها منذ العام ١٧٣٠ إلى العام ١٥٨٠ قبل الميلاد، وقد ترجم المؤرخ الإغريقي كلمة هكسوس إلى "ملوك الرعاة" ولكن الترجمة الأكثر دقة هي "الملوك الأجانب"، وجود الهكسوس في وادي النيل شكَّل جزءًا من هجرة تدفقت في كل أنحاء آسيا الصغرى في ذلك الوقت، إذ تمكن الحثيون من تأسيس أنفسهم في "الأناضول" والكيشيين كانوا يؤسسون عائلة بابل الملكية، والحوريون كانوا ينتشرون على طول ميسوبوتاميا في حزام يمتد من كركوك إلى المدن العمورية التجارية القديمة في حلب وكاركميش العنصر الأهم من بين الحوريين هم الميتانيون، كان زعماؤهم قد أقاموا لهم مملكة لعبت دورًا مهمًا في الشؤون المصرية، كانوا آريين من ذات الملّة وكان تدفق الارستقراط الهندو-أوروبي وكل الموجات الكاملة للحركات الشعبية كانت قد نسبت مباشرة لهم.

يبدو أن الهكسوس كانوا أقرباء مع التكتل العنصري للحوريين، والحوريون كانوا بالتأكيد الرعاة الرواد للفن الجديد، فن المركبات الحربية (العربات الحربية) التي استعملها الهكسوس بفعالية كبيرة ضد المصريين، أشكال أسمائهم تشير إلى أنهم كانوا ساميين، ولم يكن هناك شك بأنهم من أصل سامي، إذ لم يكونوا في حقيقتهم حوريين، ولكنهم كانوا محبي حروب مثل البدو الفلسطينيين الذين وجدوا طريقهم شمالاً وشرقا، في اتحاد مع الحثيين والحوريين، واستمروا جنوبًا وغربًا، يمكن الملاحظة بأن الرمسيسيين كانوا من العائلة الملكية التاسعة عشرة التي كانت قد زحفت من العاصمة القديمة للهكسوس "تاريس" فكانوا الرعاة لإله الهكسوس "سيت".

في البداية كان احتلال الهكسوس لمصر منحصرًا في منطقة الدلتا ولكن بوصول الموجة الآسيوية بزعامة ما يسمى "السلطان" قاموا بحملة ضد مصر العليا، وسيطر الهكسوس على الجنود المصريين من جانب الروح المعنوية ومن جانب التكتيكات السريعة لحرب العربات.

لم تكن مصر العليا مع ذلك تُدار بشكل منظم من قبل الدخلاء الذين كانوا قانعين بجمع الجزية السنوية فقط، وكان من المحتمل أن لا تكون حياتهم أفضل من حياة رؤساء البدو المختلفين، المؤرخ القديم مانيتو رأى مناسبًا أن يكافأهم بتسميتهم "العائلة الخامسة عشرة والعائلة السادسة عشرة" مثل الكيشيين في بابل، يبدو أن الغزاة لم

يعوِّدوا أنفسهم على الحياة الحضرية، كانت عاصمتهم قبل أن يتحركوا إلى ممفيس قلعة على شاطئ الدلتا تسمى "افاريس" أو "الزوان" التي كانت عبارة عن معسكر محاط بأسوار وقوات مسلحة تسليحًا ثقيلاً، وهي نقطة مغادرة للإرهابيين البرابرة الذين كان إرهابهم مؤثرًا لدرجة أن "مانيتو" قارنهم بالآشوريين الذين كان اسمهم يقترن بالقوة في العالم القديم، وأخيرًا أصبح المصريون يبغضون الهكسوس، ولكن بعد رحيلهم أخذوا يقيمون علاقات ودية مع البلاد التي يحتمل أنهم جاءوا منها، ولا يوجد أي أثر لساش من طيبه الذي كان ملك الهكسوس، ربما يكون الضرر الذي نجم بسبب الهكسوس قد أثَّر في الكرامة الوطنية أكثر من الممتلكات المادية، وفي رأي المصريين أنه إذا جاءت هزيمة الهكسوس من الفرس والآشوريين فإن ذلك يكون مغفورًا ولكن إن جاءت من قبل حشود البدو كان إهانة لا نهاية لها.

كان الهكسوس الممقوتون قد نجحوا في إسهامين في الحضارة المصرية، تمثل الأول في عربات الخيول الحربية التي لم تكن قد عرفت في مصر قبل ذلك حيث لم تكن هناك حاجة ماسة لها، نهر النيل كان يمثل الطريق السريع وعمل المصريون على استعمال النيل كشريان للنقليات ببناء المزيد من القوارب البحرية، وكان الهكسوس سريعين في تطوير وسائط النقل بإدخال عربات الخيول إلى الساحة المصرية، كما أن المصريين لم يكونوا بطبيعتهم قد

فهموا إمكانيات عربات الخيول، فلم يكونوا بطبيعتهم ولم يستعملوا الخيول للركوب إنما استعملت لجر العربات، حتى المحاربين النوبيين من العائلة الملكية الخامسة والعشرين اعتادوا على ركوب ظهور الخيول بعد أن ادخلها الهكسوس إلى مصر.

أما الإسهام الثاني للهكسوس كان فكريًا، ففي الزمن الملكي لم يكن دخل إلى مصر غزاة من الخارج، فالهكسوس جعلوا الانعزالية المصرية تعرف الآفاق الواسعة، ومن هنا كانت الطموحات تنحصر في وادي النيل أو امتداده النوبي، باستثناء غزوات المناجم والمحاجر أو مقالع الحجر (الدراكيل)، فالمصري لم يكن قد اعتاد التجوال بعيدًا عن نهر النيل، أما بعد مجيء الهكسوس بدأ اهتمامه يزيد بالتعقيدات في الشؤون الآسيوية، فإذا استطاع الآسيويون غزو مصر، فلماذا لا يقوم المصريون بإقامة إمبراطورية لهم في آسيا؟ وأبعد من هذا كان من الواضح أن مصير أراضي آسيا ومصر مرتبط بالأحداث في آسيا.

- الفصل الخامس

الأسر الملكية في مصر القديمة

السور أو سور الأمير كما كانوا يسمونه أقيم شرق الدلتا وقد أثبت أنه غير فعال في وجه الهجمات، كما تكون دائمًا خطوط الدفاع سلبية، وكان واضحًا أن أفضل وسيلة للدفاع ضد أي هجوم خارجي هو المعاهدات والتحالفات مع المعتدين المحتملين في آسيا الصغرى.

في عام ١٦٨٠ قبل الميلاد عندما كان الغزاة لمدة تزيد على نصف قرن لهم وجود في دلتا النيل ومصر السفلى؛ أصبحت مسيرات طيبة بارزة لاعتبارها عائلة ملكية منفصلة (العائلة السابعة عشرة) ومرة أخرى كانت مسيرات تسمى "انتف" كما كانت الفترة الأولى المتوسطة التي كانت وسيلة في تجسيد المصريين في مصر العليا والتي يمكن أن تصبح قوة تحرر، مكتب المسيرة في هذا الوقت كان قد استعاد مبادئه الوراثية التي كان حرم منها "سستريس الثالث" عندما اكتشفت مومياء "سيكنينرا" في وادي الملوك، كان يبدو في الرأس عدد من الجروح البليغة وكان من المعقول أن تكون هذه الجروح حدثت في المعركة، ابن سيكنينرا "كيميش" اتخذ إجراءات انتقامية نفَّذها في الحرب بشكل قوي، خلَّص فيها مصر السفلى من قبضة "أيوبي"

لدرجة الوصول إلى ممفيس، الجهود الكبيرة المتناسقة لطرد الغزاة لم تثمر حتى عهد حكم "أحمس" الذي جاء بعد "كيسيس".

أحمس كان فرعونًا بطبيعة قيادية، بدء العائلة الملكية الثانية عشرة (١٥٨ ــ ١٣٢٠) قبل الميلاد وهي العائلة الأكثر فعالية في العودة إلى المملكة الجديدة (١٥٨٠ ــ ١٠٨٥) قبل الميلاد، مصر دخلت هذه المرحلة بقوتها الملكية في آسيا الصغرى، التي جعلتها أقوى قوة في العالم وأصبحت زعيمة الأمم، وتدفقت عليها ثروات طائلة وسيطرت على موارد لا حدود لها من الطاقات البشرية والمواد مع الصفات الأصيلة.

أول مهمة لتحتمس (١٥٨٠ ــ ١٥٥٨) قبل الميلاد كانت استعادة النوبة من أيادي الحكام الفطريين (أبناء البلد)، الذين سادوا خلال الفترة المتوسطة الثانية، بنشاط لا يعرف الكلل تمكن من إعادة النوبة إلى الإدارة المصرية بعد ثلاث حملات عسكرية، وعندما أنجز هذه المهمة غامر في فلسطين وبهذا قد وضع حجر الأساس لإمبراطورية كبيرة، وذلك بضم موانئ فينيقيا الثرية والاستراتجية إلى إمبراطوريته، وبقيت العاصمة في "طيبة" تحت حكم تحتمس القوي وأحفاده، أولاً: كان سادة المدينة قد طالبوا بادعائهم الذي لا ينازع بالزعامة العسكرية والمعنوية، ثانيًا: كهانة "آمون ــ رع" الإله المحلي لطيبة الذي قاد الجيوش المصرية في مناسبتين كانتا تبرزان

كعامل سياسي قوي جدًا في الدولة، تحتمس عمل بالتقليد الملكي بالزواج من أخته غير الشقيقة "نفرتيتي" التي كانت حملت بالفرعون "امينونيس الأول" (١٥٥٧ ــ ١٥٣٠) قبل الميلاد، ويبدو أن نفرتيتي كانت امرأة محبوبة جدًا من عائلتها ومن الشعب، وبقيت عبادتها غامضة لقرون عديدة، كانت الأولى في سلسلة النساء الملكيات اللواتي لعبن أدوارًا هامة في تاريخ العائلة الملكية، ابنها امينوفيس واصل سياسة والده الخاصة بالنوبة ولكن محاولاته في آسيا كانت مجهولة، من المحتمل أن حملاته هناك كانت واسعة حيث ذكر خليفته "تحتمس الأول" (١٥٣٠- ١٥٢٠) منذ بداية حكمه أن كانت حدود مصر نهر الفرات، تحتمس كان ابن "امينوفيس" من سريته (المحظية) غير أنه سارع إلى تقوية ادعائه بأحقية العرش بزواجه من أخت "أحمس" ابنة أبيه من الملكة الشرعية، في النوبة تغلغل عميقًا في العقد الثالث، وأنشطته في آسيا سارت في نفس الاتجاه مثل أسلافه، أخذ جيوشه عبر طرق معدة بغرض إشاعة الرعب في القبائل وفرض الجزية عليهم، ولم تكن هناك أية محاولة لإقامة سلسلة من الحصون والقلاع أو خطوط اتصالات ولا محاولات لتنظيم الإدارة الاستعمارية.

تحتمس الثاني مثل أبيه وجده (١٥٢٠ ــ ١٥٠٥) قبل الميلاد لا يعرف عنه الكثير، فيما عدا أنه كان يستدعى لقمع التمردات في النوبة وفي سوريا، مما ترك سؤال وراثة العرش في وضع غير

مقرر، مرة أخرى السلالة الملكية تكونت من ابنتين شرعيتين وابن واحد غير شرعي من "السرية" أو المحظية، في هذه الحالة كانت القضية معقدة حيث أن الولد غير الشرعي كان ابن ست سنوات عندما توفي والده. عمومًا وبعد تخطي كل الخلافات الملكية كان الصبي الصغير قد أعلن وريثًا للعرش وهو "تحتمس الثالث"، وباعتباره كان صغير السن كانت عمته حتشبسوت (١٥٠٥- ١٤٨٤) وصية على عرشه، خلال فترة الوصاية تكونت لديها شهية للسلطة حتى أصبحت شهوتها جامحة فركبت العرش وأعلنت نفسها "فرعون"، وركزت في التأكيد على أصولها الشرعية وأصرت على أن أباها تحتمس الأول كان يعدها دائمًا للتاج، وادعت أنها من إنجاب "آمون – رع" شخصيًا، وقالت لابد من تخفيض تصوير الإله بالاقتران مع والدتها وكانت تصور نفسها في ثياب الرجال، وبجسم بدون أثداء لتتشبه بالرجال، واتبعت في حياتها تقليد الرجال، أحاطت نفسها بطغمة من أفراد أذكياء، شملت الوزير والكهان الكبار التابعين لـ "آمون – رع" برغم طبيعتها الهائلة كانت حتشيبسوت امرأة ذات مزاج وتمييز، كحاكمة كانت قادرة وغير مولعة بالحروب إذ كان من الصعب على امرأة أن تقود جيوشها شخصيًا في ساحات القتال، وفي مجال العلاقات الخارجية اكتفت بمشاريع تجارية سلمية.

القادة العسكريون غضبوا من الخمول وكانوا متعطشين لتكرار مآثر فراعنة العائلة الملكية، في الوقت المناسب شكلوا عصبة أحاطت

بشخص الفتى تحتمس الثالث (١٥٠٥ / ١٤٨٤ – ١٤٥٠) ق.م، وجعلوه عزيزًا على الجيش، وقد أغضب الأمير عمته ولكنه كان في سن الثلاثين عندما تخلص من وصايتها وكان ذلك إما بوفاتها أو أثر انقلاب عسكري عليها.

وما أن تقلد تحتمس الثالث السلطة حتى بدأ على الفور حملاته المتواصلة، فكان أحد العظماء العسكريين في التاريخ وكانوا يسمونه "نابليون مصر"، مومياءه تؤكد أنه كان قصير القامة كما كان الإمبراطور الفرنسي، الذي كان بينهما من المواهب أكثر من الإرادة والقوة، فقد قام بأكثر من سبع عشرة حملة مميزة تخللها رحلات منتظمة للتفتيش على الإمبراطورية القوية، سجلات مفاخرته بالسلاح كانت منحوتة إلى جدران الكرنك التي كان لها نصيب الأسد من الغنائم التي أعادها الملك إلى وادي النيل، الحملة الأولى كانت واحدة من الأكثر أهمية حيث أنها انتهت مع معركة "مجيدو"، كان من الطبيعي أن تكون مريرة على نحو غير عادي طال أمدها بالشجار مع العالم القديم، الذي هزم بها الفرعون الكثير من الائتلافات التي تشكلت لمقاومته، بعد ذلك ضم أراضي المحاصيل الغنية السورية وأرسل الحيوانات البرية وعينات نباتية إلى مصر، أبناء العائلات المالكة في سوريا أرسلوا إلى طيبة ليس فقط رهائن من أجل سلوك مستقبلي لآبائهم، ولكن أيضًا من أجل تلقينهم الأخلاق المصرية، وضمن الموانئ الفلسطينية كنقاط لتنقلات جيوشه وهكذا أعلن عن

قبضته على السلطة البحرية المهمة، أوج مشروعه جاء في العام الثالث والثلاثين من حكمه، حين كان عمره تسعة وثلاثين عامًا كسب معركتين ضاريتين في "كاركمش" وفي "حلب"، أرسل جيشه عبر نهر الفرات على عوامات وتقدم نحو أراضي الميتانيين ليهزم أعداءه اللدودين في أوطانهم وعلى أراضيهم، ثم عاد فعبر النهر وأقام شواهد لجده تحتمس الأول، ليحدد نهر الفرات كحد شرقي لإمبراطوريته، وامضي تسع سنوات منشغل في القضاء على التمردات الصغيرة، ولكن في عام ١٤٦٤ قبل الميلاد حطم أخر ائتلاف "ميثاني" باحتلال حصون "طونيب وقادش" وظل يجبى الجزية من المحافظات التي دانت له إلى أن توفي، بينما كان البابليون والآشوريون والحثيون والميتانيون والكريتيون من جزر البحر الأبيض المتوسط يرسلون له الهدايا الفاخرة والثمينة وكان لديه الوقت لغزو النوبة، كانت رغبته الملحة دائمًا مضاهاة الأعمال التي كان يقوم بها "سيسوس فقهس الثالث" من العائلة المالكة الثانية عشرة، الذي بنى له معبدًا في "سيمنا".

الثروة التي فاضت على مصر من الإمبراطورية؛ كانت سببًا في مستوى المعيشة العالية كانت قد جعلته معفي من ضرورة مراقبة الشؤون الداخلية، وبنى صفًا من الأعمدة في الكرنك، وأقام زوجًا من مسلات الجرانيت التي كان مغرمًا بإقامتها على طول البلاد، إحداها في مصر الجديدة وهي "مسلة كليوباترا" الموجودة على

ضفاف نهر التيمز في بريطانيا، بينما توأمها يقوم في الحديقة العامة المركزية في مدينة نيويورك الأمريكية، بعد وفاته انضم إلى أسلافه في وادي الملوك خارج مدينتهم الأصلية.

لكي يتجنب المنازعات حول الخلافة التي سبق وأن عانت منها الأسرة الملكية، فقد اتخذ تحتمس الاحتياطات برفع ابنه "امينوفيس الثاني" (١٤٥٠ – ١٤٢٥ ق. م) إلى العرش كحاكم مشترك، وذلك قبل سنة من وفاته، "أمينوفيس" كان طويل القامة، شابًا عريض المنكبين، يختلف عن أبيه من الناحية الجسمانية وقد كان يقال إن لا أحد يستطيع لوي ذراعه، الأمراء السوريون الذين اغتنموا الفرصة بموت تحتمس بالتمرد، امينوفيس سحق التمرد وألقى القبض على سبعة من زعماء التمرد الذين ساقهم إلى طيبة، وهناك ضحى بهم أحياء أمام نصب الإله "آمون- رع" معلقًا على المشانق ستة من أجسامهم على أسوار المدينة وأرسل السابع ليلقى نفس المصير في ناباتا البعيدة كتحذير للنوبيين، بهذه الوحشية المكشوفة أثبت نفسه أنه ليس فقط لا يستحق أن يكون تحتمس الثالث، ولكن أثبت الروح السائدة في مصر القديمة، عمل كهذا لم يكن غالبًا في سجلات الأسر الملكية، تحتمس الرابع (١٤٢٥ – ١٤٠٥) ق.م الذي كان الابن الأكبر لاميخاهس الثاني قام بجولة في إمبراطورية آسيا وزار النوبة، فعزز بذلك الاتحاد مع الميتانيين الذين كانوا يواجهون عدوًا

جديدًا من الحثيين، بالزواج من الأميرة موتيمويا ابنه الملك ارتاتاما فكانت أم امينوفيس الثالث.

امينوفيس الثالث (١٤٠٥ – ١٣٧٠) قبل الميلاد كان يكنى ملك مصر القديم "قيصر أغسطس" خلال السنوات العشر الأولى من حكمه قاتل حملة نوبية وجعل لنفسه سمعة كصياد مقدام، واحتفل بقتل مائة وعشر أسود، بعد هذه الجهود الأولية سقط في السبات وفي الشهوانية كأي حاكم شرقي مستبد، تزوج امرأة من عامة الشعب تدعى "تيي" التي منحها لقب "الزوجة الملكية العظيمة" وكانت واحدة من متعته أن يسافر مع "تيي" في قاربه "بهاء آتون" في البحيرة الاصطناعية على أرض قصره. تيي كانت ذاتها من دم آسيوي مثل الزوجات الملكيات "غولوخيبا وتادوخيبا" بنات ملوك الميتانيين "شوتارنا وتوشراتا أو ابنة تارخوندارا من ارزاوا في سيليسيا". بنهاية حكم ابن "موتيمويا" كان الدم الذي يجري في عروق الأسرة الملكية المصرية الحاكمة كان غالبًا دم الغرباء، وبرزت أيضًا أمزجة الأزياء الآسيوية في اللباس والأخلاق مع الديانة المشئومة الآسيوية، الآلهة الكبار مثل "فيردك العظيم واريان" آلهة الميتانيين وغيرها بدأت في التغلغل بين الأرستقراطية المصرية، ويلاحظ أن اسم يخت المتعة الخاص بامينوفيس "بهاء آتون" مما يبدو مؤكدًا أن عبادة آتون الإله القريب من إله عبادة الشمس الخاص بالميتانيين بدأت تتقدم إلى المقدمة في فترة حكم

"امينوفيس" فالاتونومية بمبدأ التوحيد كانت الدافع في ذلك الوقت من قبل كهان مصر الجديدة، غيورين من المعاملة الطيبة التي منحت لعدة سنين "آمون – رع" في طيبة، كعذر بعد الآلهة الغريبة، كان بإمكانهم أن يوحدوا التشابه بين عبادة إله الشمس في كل من مصر وآسيا الصغرى، ولكن في هذا كما في الأمور الأخرى امينوفيس فضل أن تأتي إليه آسيا بدلاً من أن يذهب هو إليها ولم يقتنع للقيام بالجولات إلى الإمبراطورية التي أسسها تحتمس الثالث، وحافظ بدقة لنصف القرن على خلفائه الاثنين، حكومة امينوفيس الاستعمارية لا تعفى في الحقيقة أن الحثيين قد وجدوا ملكًا محاربًا عظيمًا بشخص شوبيلوليوما مراقبة هذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف التي تضم أجناس عديدة تتطلب ملكًا حذرًا، وبينما كان امينوفيس يتشمس تحت أشعة الشمس في مملكته كان هناك على بعد في الشمال غيوم عاصفة تتجمع. "شوبليليوما" كان منشغلاً في تشجيع اتحاد أمراء سوريا وفلسطين الذي كان ينبغي أن يبدأ العمل بقوة خلال حكم ابن "امينوفيس" الضعيف، بينما كان الفرعون يتدهور في الخرف الشيخوخي، يعمل على راحته في القصر في طيبة الذي كان صديقه بناه له بدعم من امنحوتب الذي بدوره أيضًا انشأ كنيس الجنائز وكذلك معبد الأقصر الرائع، لا يمكن الإنكار بأن حكم "امينوفيس الثالث" كان مميزًا وكان بحق عرضًا اغسطوسيًا وجلاليًا.

القصة التي يحتفي بها بشكل درامي هي قصة حكم تجلب اللمسات المثيرة للشفقة في الرواية التاريخية. في السنة الرابعة من حكم "أمينوفيس الرابع" (١٣٧٠- ١٣٥٢) قبل الميلاد غيَّر اسمه من امينوفيس الرابع إلى "اخناتون" امينوفيس تعني "الإله آمون مكتفي" بينما اخناتون تعني "بهاء آتون"، أبحر الملك من طيبة إلى أواسط مصر ليجد عاصمة جديدة تسمى "اخيتاتون" بمعنى "أفق آتون"، قرب القرية الحديثة "العمارنه" في اخيتاتون انشأ معابد للإله آتون الذي عبده بالمعارضة لـ "آمون- رع".

حيث أن آتون كان يعبده والده وجده كإله واحد بين الآلهة الكثيرة. "آتون" يمثل المبدأ الخلاق للشمس كمصدر الحياة وخالق الكون المادي، وعلى الرغم من التخليد الذي كان يفترض أن يجسد عبادة إلهه الجديد، عمل اخناتون ضد الإله "آمون - رع"، اسم "آمون – رع" أزيل من كل نصب تذكاري نقش أو نحت عليه، وحتى في أي اسم سابق للاسم الملكي "اخناتون" بذاته، الملك تحوَّل إلى كاهن كبير ونبي للطائفة الجديدة وكرَّس سلسلة من الترانيم، إلى جانب الدوافع الدينية كان اخناتون مندفعًا في حربه الدينية لاعتبارات سياسية، كان يرغب في كسر السيطرة الحديدية التي لدى كهنة طيبة، ويبدو أن زوجته "نفرتيتي" أقرنت نفسها بطموحاته، فقد

دعمت زوجها في معاداة "آمون – رع" بل كان تفانيها لمبدأ "آتون" يفوق تفاني زوجها "اخناتون".

من الممكن أن تكون نفرتيتي مدفوعة في المسألة بالحقيقة أنها ربما كانت أميرة ميتانية، وكان يقال إنها كانت "تادوناهبا" المرأة الصغيرة التي أرسلت لتتزوج من "امينوفيس الثالث" الذي توفي قبل أن يقوم بمراسم الزفاف، فتزوجت من ابنه، "تيي" الملكة الأم كانت وجهة نظرها محافظة من حيث تداعيات الخلافات حول الآتونية، وكان يحزنها تفشي الانقسام، فقامت بمحاولات لتصلح ابنها مع كهان طيبة وقامت بدور الوسيط، الأمر الذي أدى أخيرًا إلى إذعانه. الاستسلام ما كان بسبب الضغط الاقتصادي، فعزل الملك نفسه في صحراء قاحلة وكانت مصاريفه تفوق دخله بينما تحكم الكهان في مصادر الدخل الحكومي وبالذات الذهب، من المحتمل أيضًا أن يكون الرأي العام إلى جانبهم من البداية، حيث أن المصريين لا ينظرون إلى اقتلاع نظامهم الديني الكامل، في النهاية بقيت قوة الإرادة وسلطة الملك متدنية عن سلطة الكهانة، ولم يستطع بأي حال من الأحوال أن يسود على المعارضة العنيدة المزودة بالمعرفة والمدعمة بألفي عام من الاعتقاد التقليدي.

اخناتون كان له جسم ضعيف أنهكته مثاليته القوية وحرارة السباق، أرسل صهره إلى طيبة ليبحث شروط الإذعان، وأكملت نفرتيتي

مأساته الشخصية بفصل نفسها عنه وأخذت صهره الآخر الصغير ليعيش معها في القصر بضواحي "اخيتاتون"، وسمَّت القصر بشكل استفزازي "قلعة آتون".

أثناء ذلك كان الآسيويون المدفوعون من الحثيين يزيلون الأصفاد المصرية، وقام أمير قادش باحتلال السهل السوري، وأمير امورو احتل فينيقيا والفلسطينيون احتلوا مجيدو والقدس، المصيبة المتزايدة للإمبراطورية المصرية تروى في رسائل العمارنة، هذه الرسائل التي تم العثور عليها خلال الحفريات الحديثة في "أخيتاتون"، تتضمن الخطابات الرسمية المستلمة ونسخ من رسائل متبادلة بين الحكومة المصرية وبين أمراء آسيا بما فيهم ميتاني وبابل وآشور، الرسائل مكتوبة على ألواح خزفية صغيرة بلغة ذلك الوقت الدبلوماسية الاكيدية المسمارية، وهي تُغطي فترة هامة من السياسة الخارجية، خلال فترة حكم "امينوفيس"، وتعكس الائتمان على فهم الشؤون بخسارة أولئك الملوك للإمبراطورية الآسيوية وجزيتها كانت ضربة خطيرة لمصر، التي وصلت إلى حد الاعتماد بشكل قوي على الثروة التي تأتي من الخارج، نتج عنها حالة من المجاعة في وادي النيل، إضافة إلى الخلافات المميتة بين زعماء البلاد، من المحتمل أن يكون اخناتون حتى في زمن حياته قد صبت عليه اللعنة كما حدث في السنوات الأخيرة، حيث تجنب أسوأ إهانة لهزيمته بوفاته.

"سيمنخارا" الشاب الذي أرسله اخناتون إلى كهان طيبة لم يبقَ على قيد الحياة بعد وفاة حماه، والفتى البالغ من العمر عشر سنوات المدعو "توت عنخ اتون" الذي كانت نفرتيتي تحتفظ به إلى جانبها في اخناتون قد ورث العرش، أصول كل من "سيمنخارا وتوت عنخ اتون" كان غامضًا، ويبدو أن اخناتون ونفرتيتي مشتركين في زيجات كثيرة في الأسرة المالكة، ولم يكونا قادرين على إعطاء الأسرة الملكية وريثًا ذكرًا فكان معظم نسلهما من الإناث، فقد تزوجتا اثنتين من البنات الست "ميرتاتون وانخسن بعاتون" وقد اختارتا سمنخارا وتوت عنخ اتون" أزواجًا لهما، من الممكن أن يكون "سيمنخارا" ابن "تيي" ولكن لا يوجد هناك أي دليل في تاريخ أسرة "توت عنخ اتون"، تمكنت نفرتيتي من إبقاء الصبي معها لمدة ثلاث سنوات أخرى ولكن بنهاية المدة لم ينكره الكهان فاحضروه إلى طيبة، وهناك تغيَّر اسمه من توت عنخ اتون إلى "توت عنخ امون" بمعنى "صورة آمون الحية" وهو تعليق ساخر عن تغيير اسم أبيه قبل عشرين عامًا، واسم "آتون" العدواني أزيل أيضًا من اسم زوجة "توت عنخ امون" انخيسن بعاتون، التي أصبحت بعد ذلك تسمى "انخيسن آمون"، عاشت في آمون، أما نفرتيتي التي بقيت وحيدة في القصر توسلت إلى ملك الحثيين "شوبيلولليوما" ليرسل ابنه كزوج لها وأسباب هذا التوسل غير معروفة، ربما تكون نفرتيتي مدفوعة بأفكار الخيانة والانتقام والخلط بين المسألة الحساسة بالفعل

لوراثة العرش، أو ربما تكون نفرتيتي السيدة غير السعيدة تشعر بالوحدة وتشتهي رفيقًا وسيمًا وصغيرًا من أصولها الآسيوية، بعد تردد من ملك الحثيين في "كاركامش" لبى طلبها، غير أن الأمير الصغير تعرض إلى كمين وقُتل وهو في طريقه إلى مصر، مؤلف هذه الوثيقة كان كما يعتقد الجنرال المتميز "هوريمهاب" الرئيس العبقري لمجموعة طيبة وزعيمًا للثورة الآمونية المضادة. هوريمهاب استعاد مكانة الهيبة المصرية في آسيا بعدة حملات قوية خلال فترة حكم "توت عنخ امون" وعندما توفي الملك الصبي نصب الجنرال مرة ثانية على العرش تمثلت في شخص "آي" كاهن مسن من النوع المتودد، "آي" أذعن أيضًا بعد فترة قصيرة وتخلى بعدها "هوريمهاب" عن سماحته الرمادية وأعلن نفسه الفرعون الجديد.

قبر تعيس الحظ توت عنخ امون بقي غير منزعج لمدة ثلاثة ألاف سنة حتى ظهر للنور في وادي الملوك عام ١٩٢٢ م لصوص قاموا بمحاولة فاشلة في الآثار لسرقة القبر، غير أن المجموعة الأخيرة من أختام المسؤولين في جبَّانة المملكة الجدية بقيت مصانة وسليمة على الأبواب الخارجية.

- الملك توت عنخ امون -

أما غرفة الانتظار فقد تراكمت فيها كتل من الأجسام العشوائية، تشبه مستودعًا ضخمًا تكومت فيه الحاجات الشخصية للملك المتوفي، كانت هناك جواهر والكراسي الذهبية، الكراسي العالية، العربات، والأسلحة وأصناف القوارب.. كان هناك الكرسي المشهور بتمثيل

الملك مع زوجته "انخيسن آمون" كابينات مطعمة تحتوي على هذه الأشياء مثل الملابس ومومياات طيور، باب آخر مشموع يحرسه تمثالان بحجم الإنسان الطبيعي للملك، تقود من الملحق إلى غرفة دفن اعتيادية، وكانت هناك قطع رخام كبيرة داخل الضريح الذهبي مقاسها الخارجي يبلغ سبعون قدمًا وعرضها أحد عشر قدمًا.

يقوم ضريح رابع بجانبه تظلله رايات من الكتان وفي داخل الضريح الرابع التابوت الحجري، التابوت الحجري نفسه يحتوي على ثلاثة توابيت، الثالث منها يتكون من عشرين حجرًا من الذهب الخالص، مغطى بالبيد التركوازي والعقيق وحجارة كريمة أخرى، الملك كان قد وصف بأنه يحمل شارة وظيفته الكبيرة ملفوفة في الأجنحة الذهبية للآلهة الحارسة، وعلى مومياء الملك قناع رائع، عندما أزيل القناع تمكن الحفارون من معرفة كم كان الصناع القدماء مخلصين في تطويع صور سيدهم، وفي غرفة أخرى يوجد صندوق الكابونية وهو صندوق يحتوي على أجسام العبادة تحرسها انوبس والحقائب التي وضعت فيها هذه الأشياء، مثل مروحة جميلة من العاج بريشها وقد وجدت محفوظة وفي حالة جيدة للغاية.

بالإجمال فإن قبر توت عنخ امون يمثل الاكتشاف الأكبر بقايا العالم القديم، ومن غير المحتمل الحصول على موجودات مقارنة تمثل نفسها كما هو وضع قبر توت عنخ امون، الأشياء التي وجدت فيه

تقف شاهدًا بعدم وجود فن منافس للأسرة الملكية الثامنة عشرة، وما كان هناك أي مدلول على الجنازات والمآتم لصبي في الثامنة عشرة من عمره أهمل من قبل طبقة النبلاء واحتقر من قبل الكهان، ثم دفن على عجل في قبر مقترض وفي تابوت حجري مكسور، الذي كان ينبغي أن يكون من الروائع الجنائزية لمقيم لامع في وادي الملوك.

"هورمهاب" (١٣٣٠ – ١٣٢٠) قبل الميلاد كان من أحفاد أمراء الاباسترونبوليس، يبدو أنه كان رجلاً ذو شخصية خشنة ومتصلبة، فرض عقوبات قاسية على الإله "آتون" والتابعين له، مغتصبًا لنفسه النصب التذكارية "لاخناتون وتوت عنخ امون"، وكانت بداية حكمه من تاريخ وفاة امينوفيس الثالث، وقد جاء بنيَّة محو وإلى الأبد من عقول الناس تجربة الذاكرة الكارثية الآتونية. وبكفاءة ضابط الأركان العامة وضع في يديه قضية إصلاح الإدارة المدنية في البلاد وهناك سبب وجيه لاعتبار التشخيص القاتم كأول ملك من ملوك الأسرة التاسعة عشرة الملكية (١٣٢٠ – ١٢٠٠) ق.م، وهي الأسرة التي يهمنا جدًّا التركيز على دورها في الحياة المصرية، بهدف الوقوف على حقيقة العلاقة بين بني إسرائيل وهذه الفترة الملكية، خصوصًا وأن ادعاءاتهم جاءت تتهم رمسيس الثاني باستعبادهم، وكان هذا الملك قد اختار صديقًا جنرالاً يدعى رمسيس الذي ينتمي إلى عائلة تنيتية كانت بكل تأكيد تنحدر من جذور الهكسوس الذين سبق وأن

تذوبوا في البيئة المصرية وأصبحوا جزءًا منها، لقبه الرئيسي يخبرنا بأنه خدم كرئيس أركان فرقة الرماة ووزيرًا، ثم كاهنًا كبيرًا للإله "سيث"، وخلال حكمه الذي دام سنتين فقط واصل تنشيط سياسات "هورنمهاب" وأرسل ابنه على رأس جيش إلى النوبة.

ابنه سيتي الأول (١٣١٨ – ١٢٩٨) ق.م الذي قبل توليه السلطة شغل نفس الوظائف التي شغلها والده، سيتي تعامل بحزم مع القبائل المحلية في فلسطين الذين كانوا استولوا على التحصينات الكثيرة على طول طرق التجارة الرئيسية، ثم بعد ذلك ذهب ليقاتل أبرع حملة في التاريخ المصري، مدفوعًا من الحثيين والعموريين والآراميين، الذين سلكوا طرقا منفصلة ليلتحقوا بجيش الأمير حماث مما حدا بسيتي اتخاذ قرار في ضوء ذلك بتقسيم قواته إلى ثلاثة فيالق (فيلق آمون وفيلق رع وفيلق سيث) وأرسلهم ضد العدو، تكتيكاته الجريئة أثبت نجاحها التام فوجد نفسه يسيطر على جزء كبير من فلسطين ومدن التجارة في فينيقيا، حارب منتصرًا ضد جيوش الملك الحثي غير أنه لم يتمكن من قمع السيطرة الحثية في سوريا، كان بناءً عظيمًا ومعبدًا رائعًا في "ابيدوس"، من هذا المعبد جاءت قائمة الملوك في طيبة وابيدوس تحتوي على أسماء سبعة وستين فرعونًا، من اعتلاء مينيس وسيتي الأول، ثم ساهم في القاعة العملاقة في الكرنك وبدأ رمسيس الأول يعد لنفسه قبرًا كبيرًا في وادي الملوك، تابوته المرمر الفخم موجود في متحف السير جون

سون في لنكولن بانجلترا، ابن سيتي رمسيس الثاني كان دائمًا كبيرًا في حسابات مصر القديمة، المفكرون المصريون خلعوا عليه لقب "الكبير" لأنه ورَّث الأجيال اللاحقة سلسلة من النُصب التذكارية المقامة بنطاق مذهل، ومن بينها كانت معابد الصخرة في السودان ورماسيوم في طيبة، أنماط القاعة الكاملة في الكرنك والإضافات الواسعة في الأقصر وإعادة إنشاء مدينة تانيس ومجلسه العائلي كان مغتصبًا فخمًا للمباني الخاصة بالذين سبقوه، وصانعًا لا يكل للمسلات والتماثيل الضخمة، تمجيد الذات في نصبه التذكارية وطبع التباهي في منحوتاته جعل المصريين يروه بعين الاستهجان، الأدلة على إنجازاته واضحة للجميع، أضاف إعلان العظمة بإنجاب أكثر من خمسين بنتًا ومائة ابن، أربع سنوات بعد اعتلائه العرش صغيرًا كان متعطشًا للشهرة، فقاد قوة جبارة إلى فلسطين، المأزق الحثي- المصري الذي دام حولاً من السنين بعد جهود سيتي الأول كان يقترب من النهاية.

"مواطاليش" ملك الحثيين سدد ضرباته بإقامة ائتلاف من أكثر من عشرين دولة وتقدم رمسيس بشكل سري لمقابلتهم، جيشه توزع إلى أربع فيالق، الملك ذاته تولى رئاسة فيلق "آمون" وتابع على مسافة بضعة الأميال من فيلق رع، بينما كانت فيالق بتاح وسيث كونت الحراسة الخلفية، أخذ الفرعون جيش آمون عبر اورونتيس وعسكر قبالة قادش، الجسم الرئيس للحثيين كان يراقب انتشار

القوات المصرية، فقام بتنفيذ مناورة مخادعة، وتسللوا تحت جنح الظلام بين القوات المحاصرة والنهر، وجد رمسيس نفسه مواجهًا لقوات متفوقة بجيشه نصف الجيش والفارين من خدمة فيلق رع، ولم يتمكن من إضافة معنويات ولو قليلة لفيلق آمون، وفي الأثناء كانت فيالق بتاح وسيث على مسافة ميؤسة بعيدًا في الجانب الخطأ لاورونتيس، رمسيس حزم نفسه من أجل قتال ممتاز معاملاً قواته البرية بهدوء وشجاعة، في النهاية تراجعت المعركة ولم يحقق أي من الجانبين فائدة برغم أن المصريين كانوا أفضل قليلاً، لتلك اللحظة المبادرة السياسية بقيت مع الحثيين الذين خسروا في ذات الوقت بعث تمرد في الأراضي المحتلة المصرية، حيث كان رمسيس حازمًا في إجابته. فقد خفض معاقل التمرد في كنعان واتجه شمالاً إلى نهارينا منتظر الانتصارات الكثيرة التي حققتها الأسرة الملكية الثامنة عشرة، ودفع الحوثيون بقوات كبيرة للدفاع عن مدينة "تونيب" التي أخذها رمسيس سريعًا بطاقة وعزم ملك شاب، وبدرجة ما أعاد خلق إمبراطورية تحتمس الثالث، تبع هزيمته للحثيين وحلفائهم في أرض المعركة سلام هش، حيث أن الجانبين رأوا تزايد عدم الاستقرار بتعديات الآشوريين، فعندما قامت قوات أشور تحت إمرة المحارب الكبير الملك "شالمانصر الأول" ابتلعوا "ميتاني" ووصلوا إلى الفرات، رمسيس وملك الحثيين الجديد "حتوشليش الثالث" قرروا أن الوقت قد حان لرأب الصدع في العداوات القديمة والاتحاد ضد العدو المشترك.

عام ١٢٧٧ قبل الميلاد أرسل ملك الحثيين لوحًا من الفضة إلى رمسيس منقوش عليها بالمسمارية مسودة معاهدة للتحالف، كانت شروط المعاهدة بعد ذلك قد كتبت على جدران الكرنك أقسمت فيها الأطراف المتعاقدة لسلام أبدي، ووعد كل طرف الطرف الآخر بالمساعدة المشتركة في حالة أي عدوان خارجي، ووضعوا نصًا حول تسليم الأسرى السياسيين، هؤلاء الأسرى استسلموا بوعد بأن يعاملوا إنسانيًا، سوريا كانت قد قسمت بعناية فائقة إلى أجواء من النفوذ، وبعد أربع عشرة سنة من توقيع الاتفاقية، قام ملك الحثيين "هتوشيليش" بزيارة حليفه شخصيًا مُحضرًا معه إلى مصر واحدة من بناته لتكون عروسًا لرمسيس، وهذه المناسبة أحييت باحتفالات كبيرة، والعلاقات الودية بين القوتين الكبيرتين حققت لآسيا السلام لأكثر من نصف قرن، وكانت حتى الموقعين الملكيين على المعاهدة قد كبروا في السن، مما فتح الباب أمام اضطرابات بدأت بما كان عجزًا عن التعامل معها، أفواج من المهاجرين والجنود المغاوير كانوا يتدفقون عبر سهول أسيا الصغرى من البلقان والبحر الأسود، راقب رمسيس الأحداث من وادي النيل بعين قلقة، متممًا بذلك ستين سنة من برنامج البناء وحلمه بقادش، المعركة التي أصبحت نصرًا مشهورًا في كل سنة مرت، وهكذا دام حكم رمسيس الثاني حوالي ٣٢ سنة.

أحد أبنائه "مينا بتاح" تولى الحكم بعد والده رمسيس الثاني عام ١٢٣٢ قبل الميلاد، وقد ورث المشاكل التي أربكت والده، وفي أسيا ابن شلمانصر الأول "توكولتي- نينورتا الأول" اجتاح بابل، في النهاية لحكم طويل لأخر ملك حثي قوي. "تودهاليجاس الرابع" ابن "هاطوشيليش الثالث"، كان الحثيون أثناء ذلك يمرون بتجربة حول أزمتهم الداخلية المتواصلة، التي كانت في تلك المناسبة تنذر بزوال وجودهم كأمة، ويبدو أن مينبتاح قد أخمد تمردًا في فلسطين في بداية حكمه قام بإرسال شحنة من القمح إلى الحثيين المتهاويين، ولكن كان ممكنًا من الغرب أن استدعيت مصر لمواجهة أخطر أعدائها الليبيين الذين سبق لسيتي حاربهم بلقاء حاد، والذين أصبحوا بعد ذلك مدعومين من شعب البحار.

الليبيون ساروا إلى ممفيس ليقطع أوصالهم جيش مينيبتاح، رمسيس الثاني كان عند وفاته يبلغ المائة عام من عمره، ومينيبتاح ابنه الثالث عشر لم يكن صغيرًا عندما أصبح فرعونًا، إذ تحمل مسؤولياته بجدارة في حين كانت ثروات مصر في التراجع، ومن هناك كانت مصر التي سارت ضد آسيا والأسرة الملكية التاسعة عشرة وصلت إلى نهاية كئيبة، ومن المفارقات الكافية أنها كانت مرتبكة أكثر لأن يترك رمسيس مائة ولد أكثر مما كان لمينوفيس الأول أو تحتمس الأول بأن لا ينجبا أبناء على الإطلاق، المغتصبون مينبتاح- سبتاح وسيتي الثاني الذين حكم كل منهم ست سنوات كانوا أحفاد الجنس الملكي لرعمسيس.

أخرهم كان سوري عاق اسمه "يارسو" مجموعة مذلة من الشؤون التي يمكن استحضارها حول الاختلال المطول في العجلة السياسية، وأخيرًا بعد مرور حولين من الارتباك والحيرة ظهر شخص قوي اسمه "سيتناخت" استولى على السلطة ١٢٠٠ قبل الميلاد وأسس الأسرة الملكية العشرين، بحكم قصير دام سنتين أنجز خلالها إحياء الحكومة المركزية القوية.

■ الفصل السادس

الوجود اليهودي

كان من الضروري استعراض جزء بسيط من تاريخ بلاد الرافدين وتاريخ بعض الأسر الملكية المصرية في هذا الكتاب لسببين:

الأول: لتتبع أصول وجذور إبراهيم الخليل عليه السلام في بلاد ما بين النهرين كما جاء في التوراة اليهودية، حيث ادعى اليهود بأن إبراهيم الخليل كان يعيش في مدينة أور الكلدانية وأنه حرق أصنام والده مما أغضب الملك النمرود كما تقول التوراة، ولدى الاستعراض الدقيق لتاريخ "ميسبوتاميا – العراق" تبين أن ذلك التاريخ العميق لم يتطرق إلى ذكر ملك هناك اسمه النمرود على الإطلاق باستثناء بضعة سطور تفيد بأن نمرود كان يضطهد إبراهيم، لا أكثر من هذا، وهناك اعتقاد بين المؤرخين أن هذه الفقرة البسيطة أضيفت إلى التاريخ العراقي مؤخرًا من قبل كُتَّاب ومؤرخين يهود أرادوا الإشارة إلى وجود ملك اسمه النمرود وأبراهام بن تارح في بلاد ما بين النهرين، بهدف الربط بين إبراهيم وبني إسرائيل، فلو كان الأمر صحيحًا كما تقول التوراة؛ لكان التاريخ لم يغفل هذه الناحية على الإطلاق خصوصًا وأنه حدث مهم في تاريخ المنطقة إذ انبثقت عنه

أحداث جسام، واحتل مكانة رفيعة بين ما ورد في الكتب السماوية، صحيح أنه جاء أيضًا في القرآن الكريم قصة حرق إبراهيم، ولكن القرآن الكريم لم يبين المكان أو الزمان الذي وقع فيه ذلك الحدث الكبير ولم يذكر القرآن أن الذي أمر بحرق إبراهيم كان ملك اسمه "النمرود" كما ادعى اليهود في توراتهم وتلمودهم.

أما فيما يتعلق بالتاريخ المصري القديم، فقد أورد تاريخ بعض الأسر الملكية بالتركيز على الأسرة الملكية التاسعة عشرة التي ادعى اليهود أن الملك رعمسيس الثاني، عميد تلك الأسرة استعبدهم في مصر وسومهم سوء العذاب! ويتبين من تاريخ الأسرة التاسعة عشرة والملك رعمسيس الثاني أن الإمبراطورية المصرية في عهده كانت فلسطين ضمن حدودها وكانت تابعة لمصر في ذلك الوقت، صحيح أن رعمسيس الثاني كان مغرمًا ببناء القصور الفخمة والكبيرة وكان يستخدم عمال كثيرين لهذه الغايات وكان يأتيه العمال من كل أنحاء الإمبراطورية ومن شمال أفريقيا، وكان في أصوله وجذوره هكسوسيًا، وكان مع الهكسوس في مصر عائلة واحدة تدعى عائلة اللاوي ولم تكن أعداد هذه العائلة تتجاوز ٥٠٠ نفر بين شاب وكهل وامرأة وطفل تذوبوا مع الزمن بالهكسوس، وبعد هزيمة الهكسوس في مصر السفلى تذوب الهكسوس أنفسهم أيضًا في البيئة المصرية واللاويين معهم، فأصبحوا جميعًا مصريين، ورعمسيس الثاني ينحدر منهم، والتاريخ المصري القديم لا يذكر

أي شيء عن تحويل مياه نهر النيل إلى دم أحمر، ولم يذكر أيضًا تسليط الداء على أبقار المصريين لتموت، انتقامًا لتعذيبهم بني إسرائيل، ولم يسلط ذلك الوباء على أبقار الإسرائيليين، حيث كان مكتوب بالبنط العريض على وجوه بقر اليهود أوامر لجراثيم الوباء – بقرة يهودية محصنة فتجنبيها أيتها الجراثيم – ولم يرسل على المصريين الضفادع والقمل والحشرات وكل الأراجيف التي تناولها اليهود في توراتهم، فمن نصدق التاريخ المدون أم الأساطير الملفقة.

المزاعم اليهودية:

درج بنو إسرائيل منذ أقدم العصور على إلصاق أنفسهم بالعظماء أحياء كانوا أم أموات، وقد سلكوا هذا المسلك بهدف تحقيق أطماع لهم في الحصول على الاعتراف بهم، وقبولهم بين شعوب الأرض التي ينتمي أولئك العظماء إليها، أو بين الشعوب التي تتعاطف معهم، وفيما يتعلق بأطماعهم في بلاد كنعان (فلسطين) نظروا فوجدوا أن إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسحق وحفيده يعقوب وأبناء يعقوب (الأسباط) عاشوا ودفنوا في تلك البلاد، فكان لا بد أن ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل وأبنائه عليهم السلام ليكونوا مقبولين لدي الكنعانيين للإقامة في وسطهم، ولكن الادعاء الأكبر كان قد جاء بادعائهم بوجود إله لهم فقط دون غيرهم من خلق الله اسمه "يهوه"، وأن هذا الإله البدعة كان يعيش بينهم ويظهر لهم بمناسبة

وغير مناسبة، وأنه كان يتقدمهم في حروبهم ضد الشعوب غير اليهودية، وكللوا هذا الادعاء بوعد من ذلك الإله الأسطوري - الذي لم يكونوا اتفقوا على تسميته بعد - بأن خصص لهم أرض الكنعانيين ملكًا خالصًا لهم، وجاءت الرواية التوراتية الملفقة حول هذا الوعد تقول:

"إن إسحق بن إبراهيم أنجب توأمين، الأول وهو الذي تقدم أخيه ولادة واسمه "عيساو" واسم الثاني يعقوب لأنه ولد متعقبًا أخيه، فكان البكر هو "عيساو" وحسب التقاليد التي كانت قائمة في بلاد كنعان أيامها أن يكون البكر هو الوريث الطبيعي لمكانة والده في ترأس القبيلة بعد وفاة الأب، وحيث أن إسحق عليه السلام كان نبيًا من أنبياء الله الصالحين كان لا بد أن يبارك الابن الذي سوف يليه من بعده في قيادة القوم، وكان من الطبيعي أن يبارك "عيساو" باعتباره الابن البكر له، أي الأكبر من أخيه، ولو بدقائق معدودة. وكان إسحق عليه السلام متزوجًا من امرأة عراقية الأصل تدعى "رفقه"، وكانت رفقة تحب يعقوب أكثر من عيساو لأن يعقوب كان ضعيف البنية نحيل الجسم، وكان يخاف من هبة ريح، أي أنه كان لين العريكة، هادئًا غير مشاكس بعكس أخيه عيساو الذي كان صيادًا يعتمد في حياته على صيد البر وكان دائمًا يتجول في البراري بين الأدغال في عمليات الصيد، فكان قوي الإرادة صلب العريكة، وحين كان إسحق في نهاية أيامه، استدعى ابنه عيساو وأغلق عليهما

باب الخيمة وقال له "لقد منحني الرب بركة وعليَّ أن أحول هذه البركة لأحد أبنائي قبل وفاتي وأنت ترى يا ولدي أن أجلي يقترب جدًا، ولهذا أريد ان أمنحك تلك البركة لكي تتولى الأمر من بعدي، لأني أعرف أنك أهل لهذه المهمة المقدسة، ولكن يشترط أن تذهب إلى الحقل وتصطاد صيدًا سمينًا تقدمه طعامًا لي، وبعد أن أتناول الطعام أمنحك بركتي تلك"، وكانت رفقه زوجته في هذه الأثناء تقف وراء الباب تسترق السمع لما يدور بين الأب وابنه البكر، وذهب عيساو إلى البراري ليحصل على صيد سمين يقدمه لوالده حسب شروط البركة كما اتفقا عليه، وكانت رفقه تريد تلك البركة لابنها يعقوب دون عيساو، فأسرعت ونادت يعقوب وقالت له: "استمع إليَّ جيدًا، إن والدك يريد منح بركته الربانية إلى أخيك عيساو باعتباره الابن البكر له، ولكني أريد هذه البركة أن تؤول إليك أنت لتحل مكان والدك بعد وفاته، وشرحت له ما دار بين الاثنين داخل الغرفة المغلقة، وأضافت سوف اعمل لك أكلاً دسمًا تدخل به على والدك وتقول له إنك "عيساو" وأنك نفذت طلبه وأحضرت له الصيد السمين ليأكله". قال يعقوب: "أخي عيساو شعور الجسم وأنا جرودي أي ليس بجسمي شعر كأخي عيساو"، قالت: "لا تهتم بذلك فسوف أكسو يديك بشعر ماعز وعندما يمد والدك يده إليك ليتأكد أنك عيساو تمد له ذراعك المكسوة بجلد الماعز وبهذا يعرف والدك أنك عيساو فيباركك، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن إسحق عليه السلام كان كفيف النظر لا

يرى مما جعل رفقه تستغل الموقف وتزيف ابنها من أجل الحصول على البركة، وفعلاً أعدت له جديًا صغيرًا بالطريقة التي تعرف أن إسحق يحبها، وأرسلت ابنها يعقوب إلى أبيه بالصيد المزور، ولما دخل عليه الغرفة قال إسحق: من أنت؟، قال أنا عيساو ولدك، جئت لك بما طلبت من صيد لتمنحني البركة كما اتفقنا، قال له اقبل علي ولما وصله مد إسحق يده ليتحسس جسد ابنه عيساو فمد يعقوب له يده المكسوة بشعر الماعز، فقال اسحق: الجسم جسم عيساو والصوت صوت يعقوب، ولكنه اضطر لمنحه البركة لأنه اعتقد بأن لا أحد يعرف بهذه المسألة غيرهما هو وعيساو، خرج يعقوب من غرفة أبيه بعد أن نجح التزوير الذي ابتدعته أمه رفقة، ولكنه فر من المنزل بعيدًا في الحقل خوفا من انتقام أخيه عيساو منه على فعلته القذرة، وبعد يومين جاء عيساو إلى أبيه بالصيد السمين وقال له لقد جئتك بالصيد الذي طلبته، قال إسحق من أنت؟ قال أنا عيساو قال إسحق: من ذلك الذي جاءني بصيد سمين قبل يومين وانتزع مني البركة التي كانت معي؟، وتأكد الاثنان أن الذي قام بهذا التزوير هو يعقوب، فذهب عيساو إلى يعقوب فلم يجده وكان يخاف عليه من الوحوش باعتبار أنه ضعيف البنية ولا يستطيع أن يقاوم الأخطار التي قد يتعرض لها، ولما استدل على مكانه وجده نائمًا في ظل شجرة من أشجار الحقل، فجلس عند رأسه ولم يوقظه لأنه لم يكن يريد أن يزعجه، ولما فتح يعقوب عينيه رأي أخيه عيساو

يجلس أمامه فقال في نفسه عدوي جاء يقتلني هنا في الحقل، قال له عيساو: انهض لقد خفت عليك من الأذى فجئت لأنقذك! قال سامحني يا أخي على ما فعلته بك، قال عيساو لا تخف لا فرق بيني وبينك فأنت أخي ابن أمي وأبي، ولكن لو أخبرتني بذلك قبل أن تقوم بهذه الفعلة، لتنازلت لك طوعًا عن تلك البركة، فليتصور الإنسان أن يعقوب النبي الذي اصطفاه الله وآله على العالمين تجعله توراة بني إسرائيل يزوِّر ويكذب، أليس هذا افتراء على يعقوب وعلى الله تعالى؟.

بعد وفاة إسحق التقى يعقوب وعيساو ليتقاسما تركة ابيهما فقال يعقوب: "ترك لنا والدنا تركة من نوعين: النوع الأول يتمثل في قطيع المواشي والنوع الثاني هو أرض كنعان، وعليك يا أخي أن تختار واحدة من هذه التركة، إما قطيع الماشية وإما الأرض، فطلب عيساو من أخيه أن يمهله يومين ليفكر في الأمر، وذهب عيساو إلى عمه إسماعيل عليه السلام وعرض الأمر عليه وطلب الاستئناس برأيه في هذه المسألة. فقال إسماعيل يا ابن أخي إن أرض كنعان لها أصحاب وهم أقوياء ومن المحتمل أن لا يتنازلوا عنها مطلقًا، ثم لو حصل ذلك فإنه يحتاج إلى مئات السنين، فأرى أن تأخذ قطعان المواشي من التركة وتترك الأرض ليعقوب ليحلم بها كما يشاء، فأخذ عيساو بمشورة عمه إسماعيل وذهب إلى يعقوب وأبلغه بقراره، فقال له يعقوب دعنا نوقع صكًا بيننا، وجاء بجلد غزال

(رق) وكتبا عليه الموافقة بتقسيم التركة على أن تكون الأرض ليعقوب والمواشي لعيساو، وأودع يعقوب ذلك الرق "الاتفاقية" في أحد الكهوف المجاورة لمدينة الخليل، وسوف نعود في موضع آخر في هذا الكتاب للحديث عن الادعاء الذي أقامه بنو إسرائيل حول أرض كنعان واعتبروها ميراثًا أزليًا لهم باعتبارهم أبناء يعقوب.

كان بنو إسرائيل يحلمون دائمًا بأرض كنعان التي تصفها التوراة بأنها أرض تفيض لبنًا وعسلاً فنسبوا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا ندري كيف صدَّق العالم رواية انتسابهم لإبراهيم الذي سبقهم بأكثر من ألف سنة، وكيف أصبحوا أحفاده وأنه الجد الأعلى لهم، رواية ملفقة من أساسها ولكن لا بأس بأن نطرقها للتعرف على مدى التزوير الذي برع به بنو إسرائيل على مرّ العصور، تقول التوراة اليهودية في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين: بأن إبراهيم اشترى من الحثيين العرب كهف الماكفيلة والحقل الذي يحيط به في مدينة الخليل لدفن زوجته سارة عندما انتقلت إلى الرفيق الأعلى، وذلك حسب النص التالي:

"وكانت حياة سارة ١٢٧ سني حياة سارة. وماتت سارة في قرية أربع التي هي في حبرون (الخليل) أرض كنعان. فأتى إبراهيم لندب سارة ويبكي عليها. وقام إبراهيم من أمام ميتة وكلم بني حثّ قائلاً: "أنا غريب ونزيل عندكم. أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من

أمامي"، فأجاب بنو حثّ إبراهيم قائلين له: اسمعنا يا سيدي أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك، فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حثّ وكلمهم قائلاً: "إن كان في نفوسكم أن ادفن ميتي أمامي فاسمعوا لي والتمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله بثمن كامل، يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر. وكان عفرون جالسًا بين بني حثّ. فأجاب عفرون الحثّي إبراهيم في مسامع بني حث لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً: لا يا سيدي، اسمعني الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها. لدى عيون بني شعبي وهبتك إياها. ادفن ميتك، فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامع شعب الأرض قائلاً: بل إن كنت أنت إياه فليتك تسمعني. أعطيك ثمن الحقل، خذ مني فأدفن ميتي هناك، فأجاب عفرون إبراهيم قائلاً له: يا سيدي اسمعني. أرض بأربعمائة شاقل فضة ما هي بيني وبينك.. فادفن ميتك، فسمع إبراهيم لعفرون ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث، أربع مائة شاقل فضة جائزة عند التجار.

فوجب حقل عفرون الذي في المكفيلة التي أمام ممرا، الحقل والمغارة التي فيه وجميع الشجر الذي في الحقل الذي في جميع حدوده حواليه، لإبراهيم ملكًا لدى عيون بني حث بين جميع الداخلين باب

مدينته، وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته في مغارة حقل المكفيلة أما ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان فوجب الحقل والمغارة التي فيه لإبراهيم قبرًا عند بني حثّ"، هذا ما كتبه اليهود في التوراة التي نسبوها لموسى عليه السلام، فمكان القبر أصبح بلاد كنعان كاملة من وجهة النظر اليهودية طبعًا، ونحن نعرف حسب العادات والتقاليد العربية القديمة والحديثة أن "الهبة" التي يهبها إنسان إلى إنسان آخر لا يتقاضى لها ثمنًا والا لا تصبح هبة، وهنا يقول عوفر لإبراهيم "الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه لك وهبتها" فكيف يتقاضى ثمنها أربع مائة شيقل كما تقول التوراة؟ غير أن هذا الأمر لا يعنينا كثيرًا بقدر ما يعنينا ورود ذكر "الشيقل" في هذه الرواية وهذا يعني أن العملة التي كانت متداولة في زمن إبراهيم عند القبائل الكنعانية هي "الشيقل" وهذا يدل دلالة واضحة على أن "الشيقل" هو عمله كنعانية عربية أعاد اليهود استعمالها بعد إقامة إسرائيل على أرض فلسطين مدعيين بأن الشيقل هو عملتهم القديمة، وهذا أيضًا يأتي في قائمة التزويرات العديدة وادعاءاتهم الكاذبة.

لهذا وجد اليهود بانتسابهم زورًا إلى إبراهيم الخليل وأحفاده فرصة للادعاء بأحقيتهم في مدينة كريات أربع (الخليل الفلسطينية) وتمكنوا إبان فترة الحكم العثماني الأخيرة في فلسطين أن يقيموا مستوطنة داخل حدود مدينة الخليل أطلقوا عليها اسم (كريات أربع) وهو اسم مدينة الخليل القديم، حيث سميت باسم ملك الفلستينوس "أبو أربع

العناقي"، غير أنهم نسبوا هذا الاسم لأنفسهم ودوّنوه في التوراة التي لفقوها عن قصد لأسباب سياسية وليست دينية على الإطلاق.

نعود هنا إلى رواية تقاسم التركة بين يعقوب وعيساو، فبعد أن تمَّت التسوية وعقد الاتفاق بين الأخوين قال يعقوب لأخيه عيساو: باعتبار أنك أخذت نصيبك من التركة وهو قطيع الماشية فإنه لا يحق لك أن تُبقي هذا القطيع على أرضي، عليك أن ترحل إلى مكان آخر خارج أرض كنعان، فارتحل عيساو شرقًا إلى أن وصل مع عشيرته وماشيته إلى شرق شبه جزيرة العرب، وأقام هناك على ساحل عمان من مسقط إلى حضرموت، وتكاثرت قبائله هناك إلى أن تذوبت في بيئة أهل البلاد الأصليين..

اليهود حوَّلوا اسم يعقوب إلى إسرائيل بموجب التوراة اليهودية كما تقدم ذكره في الباب الأول من هذا الكتاب، واستمروا بعد كتابة التوراة وتلفيق ما جاء فيها يحلمون بالعودة إلى أرض كنعان لما فيها من خيرات لا تحصى، وكانت عيونهم ترنوا إليها دائمًا ويأملون بالوصول إلى تلك الأرض يومًا من الأيام، وقد تحقق لهم ذلك عدة مرات في الماضي بسبب غزواتهم لفلسطين أكثر من مرة إلا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بتلك الأرض لسبب بسيط وهي أنها ليست ملكًا لهم، فتشتتوا في أرجاء الأرض، والشتات الأخير لهم كان لحوالي ألفي عام بدأ سنة ٧٠ بعد مولد السيد المسيح عليه السلام

في بيت لحم بفلسطين، وكان ذلك التيه والتشرد قد تم على أيادي الحاكم الروماني لمدينة القدس "تيطوس".

يتساءل المؤرخون الغربيون من هو إبراهيم الخليل ومن أين جاء إلى بلاد كنعان باعتباره لاجئًا بينهم، لا يوجد إثبات على جذوره غير ما جاء في سفر التكوين من التوراة اليهودية والتي جمعت في شكل كتاب بعد وفاة إبراهيم بأكثر من ألف سنة، يقول المؤرخون أيضًا أن التوراة كسجل تاريخي كانت موضع جدل كبير لأكثر من مائتي عام، بالتحديد لغاية عام ١٨٠٠ ميلادي، وكانت وجهات النظر السائدة أن روايات الكتاب المقدس كانت نوعًا من الإيحاء السماوي إلا أن العديد من المؤرخين من يهود وغير يهود ولعدة قرون، يعتقدون أن أسفار التوراة القديمة، تحتوي على نصوص ينبغي فهمها على أنها رمزية أو مستعارة أكثر من كونها حقائق.

خلال القرن العشرين الميلادي ظهرت انتقادات كثيرة للتوراة تقول بإن العهد القديم (التوراة) كسجل تاريخي؛ ينظم الأساطير الدينية اليهودية، وأن ما جاء في الأسفار الخمسة الأولى فيه (البنتاتويخ) أي أسفار موسى، هي أساطير منقولة عن القبائل اليهودية المختلفة والتي جاءوا بها بعد المنفى خلال النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد، ويستمر الجدل بهذا الموضوع على أن أساطير الأسفار الخمسة الأولى حررت بدقة وعناية فائقة وتم كتابتها لتكون مبررًا

تاريخيًا وإجازة سماوية للمعتقدات والممارسات والشعائر اليهودية بعد المنفى، فالأفراد المذكورون في الأسفار القديمة لم يكونوا أناسًا حقيقيين، ولكن أبطالاً أسطوريين يمثلون كل قبائل بني إسرائيل.

ولنأخذ على سبيل المثال بأن الكلدانيين الذين ورد ذكر إبراهيم الخليل أنه ينحدر منهم، لم يتدفقوا إلى جنوب العراق إلا في أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، وأن عصر إبراهيم الخليل كان قبل ذلك بكثير، والكلدنيون ذكروا في التوراة لتعريف قرائها بمدينة "أور" وذلك في بداية الألفية الأولى قبل الميلاد، مما يؤكد أن إبراهيم الخليل لم يكن كلدانيًا، وهذا يعيدنا لتذكر ما ورد في كتابات العموريين عن إبراهيم الخليل وعن أبنائه إسحق ويعقوب والأسباط، بشكل لا يختلف كثيرًا عما جاء في توراة بني إسرائيل، وأن تلك الكتابات العمورية كانت قد سبقت كتابة التوراة بما لا يقل عن ١٤٠٠ عام، الأمر الذي دعا بعض المؤرخين الغربيين إلى الاستنتاج بأن إبراهيم الخليل كان عموريًا خلافًا لرواية التوراة بأنه كان كلدانيًا وأنه الجد الأعلى لبني إسرائيل.

كما أن الادعاء بأن إبراهيم الخليل عليه السلام ينحدر من قوم نوح، فقد أثبتت الحفريات الحديثة التي أجراها اركيولوجيون بريطانيون بعد أن احتلت بريطانيا العراق في بداية العشرينات من القرن الماضي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ تمكنوا من كشف خوذة عظيمة

صنعت على شكل باروكة شعر من الذهب الخالص، مزينة بصدفات اللازوردي، كما وجدوا أيضًا "زقورة" عملاقة، والبرج الذي يقوم على نصفين مزدوجين يوحي بقصة برج بابل، وكان هذا من أعمال "اورنامو" من العائلة الملكية الثالثة، التي حكمت بابل بين الفترة الواقعة بين ٢٠٦٠ ــ ١٩٥٠ قبل الميلاد.

يقول المؤرخون إن هناك احتمالاً بأن إبراهيم الخليل ترك مدينة أور الكلدانية بعد الطوفان في عهد "اورنامو"، حاملاً معه إلى بلاد كنعان قصص "الزقورة" ورواية الطوفان التي كانت قبل ذلك بكثير، ومن أهم الروايات المتناقلة عن إبراهيم الخليل بأن الله اختاره وسلالته لدور خاص في مملكة الله، وفي مقدمة ذلك الدور الذي هو هبة الأرض التي كان فيها إبراهيم وذريته لاجئين وجوالة، وهي أرض كنعان كما تقول الروايات التي جاءت مع إبراهيم إلى بلاد كنعان.

فإذا كانت الروايات التي جاءت في التوراة ومنها ذكر الكلدانيين وأن ذكرهم إنما جاء في التوراة لتعريف قرائها بمدينة "أور"، فإن هذا يدل على أن هناك روايات عديدة جاءت في توراة اليهود ليس لها أصول حقيقية بل جاءت على صورة (مجازية) فكيف لنا أن نؤمن بأن الله اختار إبراهيم وسلالاته لدور خاص في مملكة الله وأن ذلك الدور يتلخص في هبة أرض كنعان لسلالاته من بعده، بينما هو جاء لاجئًا في وسط الكنعانيين سكان البلاد الأصليين، والسؤال الذي

يطرح في هذا الموضوع هو لماذا لم يهبه الله أرضًا في بلاد الرافدين التي هي أرض مولده كما تقول التوراة؟، أو في بلاد حران التي ذهب إليها في تجواله ورحيله عن العراق؟ هل كانت إرادة الله سبحانه - وهو المنزه عن ذلك – أن يزرع الفتنة بين الناس بهذه الطريقة التي أقل ما يقال عنها بمفهومنا الحالي إنها فتنة استعمارية، والتي جعلت أرض كنعان مسرحًا للحروب وسفك الدماء على مدار آلاف السنين، وسوف تستمر كذلك إلى يوم القيامة بسبب هذه الهبة المزعومة من إله مزعوم أيضًا.